حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة الرابعة عشرة / (مارس - أبريل) ٢٠١٩

71

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | March - April 2019

بركان الجمال

تحَرّكْ كُـنْ إلى العَليا دَليلا ورَبُّ الكونِ يهْديكَ السّـبيلا
بهمّتـكَ العظِيمة يـا رفِيقي تَـرَ الـبركانَ بُسْـتانًا جمِيـلا
فَقَـدّمْ منكَ لو جُهْدًا يسِـيرًا بعَوْنِ الله تبْني المُسْـتحيلا

***

٢ مأزق الجهالة
فتح الله كولن

٥ الساعة البيولوجية
د. صهباء بندق

١٥ الطفل والذائقة الجمالية
أ.د. بركات محمد مراد

داء ودواء

لـم يكن الأسـتاذ فتـح الله كولن ليرضى يومًا بتخلف المسـلمين عن ركب الإنسـانية، أو تقاعسـهم عن اللحاق بقافلـة التطـور والنمـو، الأمـر الذي دفعه بشـدة إلى رسـم خارطة فكرية وروحية تساعدهم على الخروج مما هم فيه، وتجعلهم قادرين على امتلاك ناصية أنفسهم، ليكونوا من جديد عينًا للعالم وقلبًا للكون.. ويواظب كولن في مقاله المتصـدر هـذا العدد من حراء على رسـم هـذه الخارطة، ليقف على داء ينخر بنية الأمة دون توقف، وهو "الجهالة" التي وصفها بـ"كارثة كل الحقب والأزمان". يقول كولن عنـد وصفـه الدواء لهذا الداء: "ما لم يتـم تنوير الجماهير وإرشـادُ الأجيال إلى فكر الأمة والوعي بالتاريخ، وما لم يتم الحيلولة دون كل التيارات السلبية التي لا تتواءم مع "الجـذور الروحيـة" لهـذه الأمة، فلن نتفلـت من الأزمات المحدقـة بمجتمعنـا، ولـن نتخلـص مـن الأمـراض التي أصبحت حلقة مفرغة فاسدة".

وأما "صهباء بندق" فتتناول في مقالها العلمي "الساعة البيولوجية سيمفونية الجينات والمجرات"، آخر ما وصل إليه علم وظائف الأعضاء، وكيف زاوج العلماء هذا العلم مـع تقنيات البيولوجيا الجزيئية وعلم الجينات باسـتخدام ذبـاب الفاكهـة كنمـوذج بيولوجي، ليكتشـفوا مكونـات بروتينية تتحكم في آلية عمل الساعة البيولوجية".

وقـد أمتعنـا "ناصـر أحمـد سـنه" بمقاله الشـيق "أنت تأكل بدماغك"، حيث أشـار إلى الدراسـات العلمية التي أبانـت عـن وجـود أكثـر مـن مليـون خليـة عصبيـة تبطّن القنـاة الهضميـة التـي اعتُبرت دماغًـا ثانيًا في حـد ذاتها.

وأمـا مقـال "محمد السـقا عيـد" "زينة الفم" يأتـي مكمِّلاً للجماليات التي تحلّى بها الإنسان شكلاً ومضمونًا.

و"محمـد أعراب" بمقاله القيـم "البحث عن الحقيقة بيـن منهـج الفلسـفة ومسـلك العرفـان" ينقلنـا مـن عالم الشهود إلى عالم الغيبيات، ليقدم لنا سيرة فكرية وروحية ثرية لشخصية "حي بن يقظان" التي ترصد لحظات حياته الطبيعية والنفسية والعقلية والوجدانية.

"لا بـد أن نحشـد كل الجهـود التربويـة لتنمية الوعي الجمالـي عند الطفل بتوثيق صلته بعلم الجمال وفلسـفة الفـن، وإكسـابه القيم الجمالية فـي الحياة، وتعويده على الترقـي برؤيتـه التشـكيلية ومواهبـه الإبداعيـة ومشـاعره الإنسـانية"؛ هـذا بعض مـا قاله "بركات محمـد مراد" في مقاله الماتـع والتوجيهي "الطفل والذائقة الجمالية".

وهل يمكن أن تتحول الثقافة إلى فتنة؟ ما هي أسباب هـذه الفتنة وما سـبيل علاجهـا؟ هذا ما يجيب عنه "خالد راتب" في مقاله الموسوم بـ"الفتنة الثقافية".

وأمـا "سـليمان عشـراتي" فيركـز علـى موضـوع غاية فـي الأهميـة هو "صناعة المتلقي الفاعل" الذي يقول فيه عند الإشارة إلى العلاقة بين الباث والمتلقي: "من كانت روحانيته قد استوفت نصابها واستوت على سوقها، كان كل مـا يصـدر عنـه من قول أو فعل أو حال، يجد سـبيله إلى الناس بلا دعاية ولا استئذان".

هذا وكلنا أمل في أن تكون "حراء" في هذا العدد قد وُفِّقتْ إلى تقديم وجبة غنية بالغذاء الفكري يسدّ جوعنا المعرفي الذي نعاني منه. والله وليّ التوفيق. ■

المحتويات

مأزق الجهالة / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
التكنولوجيا والإنسان / حراء (ألوان وظلال)	٤
الساعة البيولوجية سيمفونية الجينات والمجرات / د. صهباء بندق (علوم)	٥
البحث عن الحقيقة بين منهج الفلسفة ومسلك العرفان / د. محمد أعراب (قضايا فكرية)	٨
من آداب قبول الآخر / د. محمد فتحي فرج (قضايا فكرية)	١٢
هدية للأنام / حراء (ألوان وظلال)	١٤
الطفل والذائقة الجمالية / أ.د. بركات محمد مراد (تربية)	١٥
أرسلكم للحياة لا للموت / د. جمال بن فضل الحوشي (قصة)	١٩
الفتنة الثقافية / د. خالد راتب (قضايا فكرية)	٢٣
مدينة القباب / مجدي إبراهيم (تاريخ وحضارة)	٢٦
سر أفريقيا / أميرة الوصيف (قصة)	٣٠
ذرة من عمل خالص / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
الإعلام وتكوين الصورة الذهنية / الزبير مهداد (ثقافة وفن)	٣٤
صناعة المتلقي الفاعل / د. سليمان عشراتي (قضايا فكرية)	٣٨
قدح من اللبن / محمد محرم (تربية)	٤١
زينة الفم / د. محمد السقا عيد (علوم)	٤٥
القيمة المنسية / محمد جمال المغربي (قضايا فكرية)	٤٩
نساء المسلمين في صناعة الحضارة / خلف أحمد أبو زيد (قضايا فكرية)	٥٢
أنت تأكل بدماغك / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٥٥
هذي عروسك أنت / العربي السيد عمران (شعر)	٥٩
أمن البيئة في الإسلام / د. صبحي رمضان فرج سعد (قضايا فكرية)	٦٠

مأزق الجهالة

نحن على مشارف موسم جديد لأداء المهمة، قلوبنا مفعمة بأشواق زليخا وعنائها، وآهاتِ يعقوب وأحزانه، في انتظار قدومِ بُشرى تـرُدّ لنا أبصارنا وتبث الفرح والسرور في قلوبنا.

وهل من الممكن أن لا يتعذب القلب تجاه الوضع المفجع لإنساننا الذي يتخبط تحت أكوام من الأنقاض التي راكَمَتْها السنوات العجاف الحالكة؟!

فاذهبوا إن شئتم إلى البلاد التي كانت تسير على خطنا وتجوَّلوا فيها واحدًا تلو الآخر، وإني لواثق تمامًا أنكم لن ترجعوا منها إلا بقلب مُتَوَعِّك من آلام ما شاهدتم من مناظرها، فليس فيها بلدة أو منطقة مسكونة -بما في ذلك المراكز الكبيرة، والمدن الصغيرة، والقصبات المكتظة بالسكان والقرى النائية- إلا وقد استولت عليها الجهالة وأصبحت الأزمات الاجتماعية فيها مثل دوامة تبتلع

الناس، وسترون كمًّا هائلاً من الأمراض المزمنة التي لم يتم البحث عن علاج لها، إلى أن أصبح كلٌّ منها اليوم أُكالٌ يستعصي على العلاج والدواء.

ولكنَّ أكثر ما لا يعرف الشفاء وينخر بنية أمتنا ويقضم كياننا من بين هذه الأمراض، هو مرض الجهالة. فـ"الجهالة" -بمعنى أن لا يعلم الإنسان شيئًا، وإذا علم شيئًا فهو لا يستطيع استثماره، وأن يكون نابيًا عن الحق محرومًا من فكرة الحق- قد صارت كارثة في كل الحقب والأزمان؛ فما لم يتم تجفيف هذا المنبع المشؤوم الذي يأتي لنا بالبؤس، وما لم يتم تنوير الجماهير وإرشادُ الأجيال إلى فكر الأمة والوعي بالتاريخ، وما لم يتم الحيلولة دون كل التيارات السلبية التي لا تتواءم مع "الجذور الروحية" لهذه الأمة، فلن نتفلت من الأزمات المحدقة بمجتمعنا، ولن نتخلص من الأمراض التي أصبحت حلقة مفرغة فاسدة.

أفليست الجهالة هي السبب في أننا لم نستطع أن نستثمر سهولنا التي هي أخصب سهول العالم وأكثرها بركة، وأن نستفيد من أنهارنا التي تضاهي الياقوت، فحوَّلنا بلادنا الطيبة التي كانت زاوية من زوايا الجنان إلى خراب يباب، وعشنا غافلين عن مختلف الكنوز المكنونة في أحضان بلادنا التي كانت كلُّ قطرة منها كجنان إرم، ولم نستطع الانتفاع بتربتنا ومعالجةَ معادننا، والأدهى والأمرُّ أننا تعلقنا بفكرة مفادها: أننا لن نستطيع إنجازَ أمرٍ ما بأنفسنا مِن دون الاستعانة بغيرنا، وفَقَدْنا أملنا وإرادتنا، فاستمرت الجهالة بظلامها المحلولك وهي تنخر جسم أمتنا من داخلها إلى أن وصلت إلى يومنا هذا.

وفي هذه المرحلة الجديدة التي أكسَبَت الأمَّةَ مشاعرَ الأمل في الخلاص وتطوّرت لديها فكرة العلوم والتكنولوجيا؛ وقع إنساننا في نوع آخر من دوامة الجهالة؛ فالبعض منا دارت رؤوسهم وزاغت أبصارهم تجاه علوم معاصرينا وتكنولوجياتهم، وبدلاً من أن يبادروا لإنقاذ البلاد فيعمّروا القلوبَ بالإيمان والعقولَ بالعلم والحكمة وكلَّ أصقاع الوطن بالفنون والتجارة، ظنوا أنهم سيرتقون إلى مستوى "الحضارة المعاصرة" من خلال الدوس على أفكار أمتنا، وإزالةِ سجايا ملتنا، والتنصلِ كلّيًا من الفضيلة والأخلاق، وبذلك سدّدوا ضرباتٍ قاضيةً إلى روح الأمة، فأصبح هذا النوع الثاني من الجهالة أكثر تدميرًا وخطورةً بالنسبة لبلادنا وإنساننا، فبينما ينطفئ النوع الأول ويذهب تأثيره تجاه العلم، كان النوع الثاني يقتحم كل قطر باسم العلم والحضارة، ويَلقى قبولاً حسنًا في كل المحافل، ويُصفَّق له في كل مكان، فالأول كان قد حوَّل البلاد من أقصاها لأقصاها إلى خراب يباب فأفرح بذلك البومَ فقط، في حين أن الثاني جاء فسَلبَ من الأمة فضيلتَها وسَلَخَ منها نجابتها الروحية، وقضى على كل ما تتحلى به من مشاعر التضحية فجَعل الجماهيرَ حيارى تائهين.

فينبغي للمرشدين والمربين الذين أخذوا على عاتقهم الإعداد للمستقبل، أن يعلنوا الحرب على كِلَا هذين النوعين من الجهالة، بل عليهم أن يستخدموا كل الوسائل المشروعة في هذا السبيل، وأن لا يتوانوا لحظة واحدة عن بذل الجهود من أجل إخراج إنساننا من الظلمات إلى النور.. فقد أمْلت الضرورةُ أن يُعْلَنَ نفير ثقافي عام لتتحول رقعة البلاد بأكملها، ببيوتها ومدارسها ومقاهيها وثكناتها العسكرية، إلى مؤسسة تربوية بالمعنى الكامل، نفيرٌ عام تجاه الجهالة والفقر الفكري والتقليد والغفلة عن ثقافة الأمة وأمجادها، وأن يُعاد النظر في القرارات التي اتُّخذت بأحكام مسبقة، وأن يتم تحديد نظرة جديدة للعلوم.

ولا ريب أن المعلمين هم الذين سيكونون روّادَ هذه المهمة المباركة، المعلمين الذين وصلوا إلى مستوى يتناولون فيه الإنسان على أنه كلٌّ متكامل من الروح والبدن، ويأخذون بعين الاعتبار موقعه في الكون وعلاقته به، ويُثيرون في الأرواح حماسَ التوجه نحو تحقيق الغاية من الخلق، ويَعتبرون الغيب والشهادة على أنهما وجهان لعملة واحدة.

أجل، إن فكر الرهبنة والعقل الروحاني بالنمط الغربي الذي ينكر الجانب الجسماني في الإنسان كان مضرًّا بالفعل، ولكن ما لا يقل عنه ضررًا -بل يزيد عليه- هو الأنظمة الفلسفية التي تتناول الإنسان من ناحية جسمه وبدنه فقط، فهل من الممكن عدم إدراك كون الإنسان مخلوقًا استثنائيًّا، وأنه يحتل في الكون موقعًا مهمًّا، وأنه -بحكم خِلقته- مرشحٌ لوظائفَ ساميةومناصبَ ودرجاتٍ عالية؟!

فهل يُعقل أن لا يكون مستقبلٌ، ووظيفة، لمخلوق يمتلك موهبة الاستفادة من كل أنواع العلوم والمعارف،

hiragate.com

وقد شُرِّف بقابلية التدخل في الأشياء والأحداث، وجُهِّز بمَلَكاتٍ يُدرك ويَتبنى من خلالها كلَّ أشكال الجمال، ويعرف كل أنواع اللذة ويُميِّز بينها، وتَشْمَل روحه بالشوق إلى الأبدية والخلود، ويئن قلبه بهتافاتِ "الأبد.. الأبد"؟!

فالنظر إليه على أنه لا وظيفة له ولا مسؤولية، وبالتالي حرمانُه من مستقبل طويل وسعيد، يعني الحطّ بهذا المخلوق الأشرف إلى مستوى سائر الكائنات الحية، وإنكارَ مواهبه ومشاعرِه المادية والمعنوية، وتوجيهَه نحو أشد الطرق أزمة واضطرابًا، والزجَّ به في مستقبلٍ مظلم تائه، ولستُ أدري هل يمكن أن يمارَس على الإنسان نوع من الظلم والضيم أشدُّ من هذا؟!

فالمعلم الحقيقي في اعتقادنا، هو الشخص المحظوظ الذي يتناول هذا الإنسان الذي أرسِل إلى الدنيا بمَلَكَات تؤهِّله لأن يصبح كل شيء، فيُعلِّمُه ما هو الصحيح، ويبعثُه على التفكير الصحيح، ويبث في قلبه الشوق نحو المعالي، ويجعل روحه محلِّقةً في الأعالي، ويزيح عن طريقه كل أنواع الظلمات والثقوب السوداء، ويوصله إلى منافذ النور والضياء.

فحينما يحين الأوان، سيتحول الحجر والتراب في يدَيْ بطل الحقيقة المبارك هذا إلى ذهب خالص، وتكتسب الأشياء التي تبدو تافهة، قيمةً ورواجًا، وتَبْلغُ أحلكُ الأرواح إلى فجر مشرق، وإذا بِعَبيد النفوس الذين لا يريدون انعتاقًا عن رقهم ولا انفكاكًا عن أغلالهم، يتكاملون مع أرواحهم ويصبح كل منهم سلطانًا.

فما أعظم بركة المعلم الذي نذر نفسه للإرشاد والتبليغ، ويتتبع تلاميذه خطوة خطوة، ويفيض شوقًا وحماسًا إلى الارتقاء بهم في كل منعطف من منعطفات الحياة إلى مستوى "الإنسانية"، ويستطيع أن يريهم الحقيقة المطلقة من خلال عدسة العلوم، ويمتلئ من حين لآخر بالشدِّ المعنوي مثل الصاعقة، ثم يُلَطِّف هذا الشدَّ في روحه فيحوّله إلى باقات من الضياء لينوِّرَ به قلوب تلاميذه وأفئدتَهم. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية تحت عنوان: Cehalet Çıkmazı، العدد:٥٨ (نوفمبر ١٩٨٣). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

التكنولوجيا والإنسان

تكنولوجيا شاغلت قلبًا وبالا
وبها الإنسان قد زاد اختيالا
ليت ما قد كان من جهد عظيم
نحو خير الناس بالبشرى توالى
كم فقير كم لهيف كم ضعيف
أبصروا العيش مع الظلم محالا
ساعدوهم طمئنوهم لو أردتم
أن تروا في سعيكم هذا جمالا !

***

د. صهباء بندق*

الساعة البيولوجية
سيمفونية الجينات والمجرات

بعد أن زاوج العلماء الثلاثة "جيفري هول" و"مايكل روزباش" و"مايكل يونج" آخر ما وصل إليه علم وظائف الأعضاء مع تقنيات البيولوجيا الجزيئية وعلم الجينات -وباستخدام ذباب الفاكهة كنموذج بيولوجي- تمكَّنوا من عزل الجين المسؤول عن التحكم في الإيقاع البيولوجي اليومي للذبابة، ونجحوا في تحديد البروتين الذي يحمل ذلك الجين شفرته ويعمل على إنتاجه، واكتشفوا مكونات بروتينية إضافية أخرى تتحكم في آلية عمل الساعة البيولوجية.

ولكن كيف يؤثر هذا الجين على عمل الساعة البيولوجية؟ أنفق هؤلاء العلماء الثلاثة -الفائز كل واحد منهم بجائزة نوبل- عقودًا للإجابة على هذا السؤال. وبعد عدة أبحاث أصيلة ورائدة، مُنحت جائزة نوبل للطب عام ٢٠١٧ مشاطرة بين العلماء الثلاثة، وإلى جانب الجهد والتعب والمجد والشرف العلمي العظيم، تقاسموا مبلغ ٨٢٥ ألف جنيه

إسترليني قيمة الجائزة المادية. ولكن كيف حدث ذلك؟

تقنيات البيولوجيا الجزيئية

في عام ١٩٧١ لاحظ عالم الأعصاب الأميركي "سيمور بنزر" وتلميذه "رونالد كونوبكا، تعطل "الدورة اليومانية" (Circadian rhythm) لعدد من ذبابات الفاكهة المتحولة إحيائيًا. كانت فكرة وجود أسس جينية للإيقاع الدوري لفقس الذباب محل جدل في ذلك الوقت، ولكنّ العالِمين أرجعا السبب إلى حدوث تغييرات إحيائية (طفرات) داخل أحد جينات الذباب تسببت في تعطيل الساعة البيولوجية لديها. لم يتم تحديد الجين المسؤول عن الساعة البيولوجية آنذاك، ولكن عندما تم عزله لاحقًا مُنح اسم "جين الفترة" (Period)، أي الجين الذي لم يكن معلومًا في تلك الفترة.

بدأت الدراسات الجينية للساعة البيولوجية عام ١٩٨٤، بفريقين يعملان في توقيت متزامن تقريبًا، قاد الفريق الأول "جيفري هول" و"مايكل روزباش" في جامعة براندیس بولاية ماساتشوستس الأمريكية، والفريق الثاني كان "مايكل يونج" يقوده في جامعة روكفلر بنيويورك؛ درس الفريقان بدقة وعمق جينات ذباب الفاكهة على مدار ٢٤ ساعة، وعلى الرغم من عملهم المنفصل في إجراءاته المعملية، إلا أن تبادل الأفكار والاقتراحات بين الحين والآخر ساعد على تطوير الأبحاث وتسريع خطوات الحصول على النتائج.

الساعة البيولوجية الغامضة

نجحت محاولات عزل الجين الذي يتحكم بالإيقاع البيولوجي، وثبت أنه عند تعطل هذا الجين تفقد ذبابة الفاكهة ساعتها البيولوجية، وكان ذلك إثباتًا لكون هذا الجين هو المسؤول عن هذه الوظيفة الحساسة. تم أيضًا التعرف على البروتين "بي إي أر" (PER-protein) الذي يحمل ذلك الجين شفرته. وقام العلماء باستنساخ هذا الجين، وتمكنوا من التحكم في إنتاج البروتين "PER"، واكتشفوا أنه يعمل على تعديل معدلات إفراز هرموناتنا، ويتحكم في نشاط الأيض في خلايانا، ويؤثر في سلوكنا، ويعمل على تعديل فترات النوم واليقظة، وضغط الدم، وضربات القلب، ودرجة حرارة أجسامنا، ونشاط كل عضو فيها حسبما يتطلب اختلاف النهار والليل.. وثبت أن ذلك المؤقت الذاتي داخل الخلية ليس قاصرًا على ذبابة الفاكهة فقط، بل يوجد بنفس الآلية ولنفس الغرض، في جميع النباتات والحيوانات، وكذلك الإنسان.

نحن ممتنون للغاية لذبابة الفاكهة التي تعرفنا -من خلال جيناتها- على الجينات والبروتينات المسؤولة عن الساعة البيولوجية الغامضة التي تدور عقاربها وتدور تروسها برشاقة ودقة دون ضجيج في أعماقنا.

سباق البروتينات

اكتشف "جيفري هول" و"مايكل روزباش"، أن مستويات البروتين "PER" تتأرجح ارتفاعًا وانخفاضًا على مدار ٢٤ ساعة، فهذا البروتين يتراكم داخل الخلية كل ليلة، ليبلغ ذروته قبل أن يبدأ في التحلل مرة أخرى مع حلول النهار.. ولكن كيف تتكرر هذه التذبذبات البيولوجية يوميًا على هذا النحو من البراعة؟

جاءت الإجابة بعد عشر سنوات (عام ١٩٩٤) من جامعة روكفلر، عندما اكتشف "مايكل يونغ" أن توقف إنتاج البروتين "PER" مع حلول الصباح لا يحدث كمجرد ردة فعل مثبطة نتيجة لتراكمه، ولكن هناك جين آخر يسمّى "جين الوقت المزدوج" (Double time)، يحمل ذلك الجين شفرة لتخليق بروتين جديد أسماه البروتين "TIM"، إذ عندما يلتقي هذا البروتين بالبروتين "PER" داخل الخلية، فإنهما يتلازمان معًا، ويتحركان نحو نواة الخلية ليوقفا عمل الجين "Period". وهذا هو السبب وراء توقف الخلايا عن إنتاج المزيد من البروتين "PER"، وليس بسبب التراكم والتغذية المرتجعة كما كان يُعتقد سابقًا.

وفي نهاية تسعينيات القرن الماضي، درس العلماء الثلاثة، وعلماء آخرون، التنظيم الجزيئي لجين "الفترة" والبروتين "PER" الذي يشفره، واكتشفوا جينات أخرى مثل "Clock"، و"Cycle"، إلى جانب الجينات التي تم اكتشافها سابقًا، تتشارك جميعًا في تنظيم الساعة البيولوجية.

كشفت عدة أبحاث أخرى عن الآليات الجزيئية المعقّدة بين الجينات المُنظمة لعمل الساعة البيولوجية، وحددوا مكونات إضافية جديدة للساعة البيولوجية ومجموعة من البروتينات الإضافية المطلوبة لتفعيل "جين الفترة".

hiragate.com

إن هؤلاء العلماء الثلاثة الذين تمكنوا من الولوج إلى تروس وماكينات ساعتنا البيولوجية، وكشفوا عن عبقرية إيقاعها الداخلي الذي يسمح للكائنات الحية بالتكيف اليومي مع دورة الضوء والعتمة المرتبطة بدوران الأرض، وأوضحوا الكثير عن الآليات الجزيئية لانتظام الساعة البيولوجية التي بدأنا نسمع تكاتها مؤخرًا.

سيمفونية الجينات والمجرات

إذا ذهبنا في رحلة إلى نواة الخلية عند لحظة الصفر في الدورة اليومية التي تبدأ بعد الغروب مباشرة، فإننا نكاد نسمع تكات الساعة البيولوجية أثناء عمليات نسخ وترجمة الجين المسؤول عن تكوين البروتين "PER"، وتظل عملية تخليق البروتين مستمرة إلى أن تبدأ عملية تخليق بروتين آخر مع حلول النهار؛ فيبدأ البروتين الأول المتراكم عبر ساعات الليل في التحلل مرة أخرى، وتتتابع عملية "التراكم" و"التحلل"، فيما يشبه الملاحقة بين بروتين الظلام وبروتين الضوء، حيث يطارد بروتين النهار بروتين الليل يوميًّا في حلقة محكمة ذاتية التنظيم.

ولكن إذا ذهبنا في رحلة إلى الفضاء الكوني، وأخذنا نلتقط صورًا للكرة الأرضية وهي تدور حول نفسها، ثم قمنا بعملية تسريع لتلك الصور، فإننا سنرى بوضوح حركة التلاحق والتعاقب المتتالية لدورة الظلام والنور.. كما سيُظهر الفيديو المُعدّل بآلية التسريع أيضًا، أن الليل هو الأساس الذي يشغل الجزء الأكبر من هذا الكون؛ فالعتمة تحيط بالكرة الأرضية التي يغشاها الليل من كل جانب ما عدا طبقة رقيقة هي طبقة النهار، وأن الظلام يلحق بهذه الطبقة الرقيقة من الضوء بحماس لا يفتر دون أن يسبقها. وقد صوّر لنا القرآن الكريم هذا السباق بقوله تعالى: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾(يس:٤٠). وبكلمات قليلة اختزل مشهد الليل وهو يتعقب النهار ويلحقه باستمرار: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾(الأعراف:٥٤).

الأبحاث الجينية أثبتت أيضًا، كيف يطلب البروتين الثاني المُصنّع بالنهار، البروتين الأول المُصنّع بالليل، وكيف يلاحقه ملاحقةً حثيثة، وكيف تضبط هذه المناوبة بين الجينات المزامنة بين النشاطات الحيوية داخل الخلية والساعة الكونية على مدار اليوم. وهذه المزامنة الوثيقة بين

إيقاع ساعاتنا الداخلية والساعة الكونية، هي التي تتحكم في العديد من الوظائف البيولوجية، مثل مستويات الهرمونات، ودرجة حرارة الجسم، وعملية التمثيل الغذائي.. كما تضبط ساعات النوم والطعام وتكييف ضغط الشرايين.. وهكذا تتكامل العلوم لتعيد رسم أفهامنا للحياة، حيث يحيط علم وظائف الأعضاء، بالظواهر الكبيرة والقواعد العامة لأجهزة جسمنا وأنسجته، ثم تتسلم الراية علوم البيولوجيا الجزيئية، لتكتمل الفسيفساء الميكروسكوبية، وتكتمل قطع "البازل" الفريد الذي يمثل كياننا.

بصمة واحدة

إذا كان هناك ملاحقة الليل على النهار -والعكس بالعكس- على مستوى الكرة الأرضية والساعة الكونية الكبرى، فهناك أيضًا سباق دائم على مستوى الجينات والبروتينات والآليات الجزيئية التي تنظم إيقاع الساعة البيولوجية داخل خلايانا.

وليس البيولوجيا الجزيئية وحدها القادرة على سبر أغوار هذا الجسم البشري المعجز، بل إننا نجد بصمة واحدة فوق جميع المخلوقات؛ الكونية والمجهرية، الضخمة والدقيقة.. ثمة تناغم وانسجام بين إيقاع الكون الكبير الهائل والكون متناهي الصغر الذي يشكل أجسادنا.. والإبحار في كليهما يوصل إلى نتيجة واحدة، هي أن تنوع الخلق يدل على القدرة والإبداع، وتشابه وحدة التركيب في الخلق يدل على الوحدانية والانفراد. ■

(*) طبيبة متخصصة في علم الميكروبيولوجيا الطبية والمناعة / مصر.

hiragate.com

د. محمد أعراب*

البحث عن الحقيقة
بين منهج الفلسفة ومسلك العرفان

تعتبر قصة "حي بن يقظان" من القصص الفلسفية الوجدانية الرمزية، أو لنقل إنها قصة الفلسفة والتصوف معًا. فابن طفيل نفسه يعرّف قصته هذه، بأنها حديث عن "الحكمة المشرقية" بلغة الرمز والإشارة صونًا لأسرارها ممن ليسوا أهلاً لها. ولا يخفى أن الحكمة المشرقية هي البرزخ بين بحر الفلسفة ومحيط التصوف، فجوهرها هو شروق الأنوار على النفس.

ومن جهة أخرى تعتبر القصة مقاربة رمزية لإشكالية نظرية العرفان (الإنسان، المعرفة، الوجود الحق)، وهي سيرة فكرية وروحية ثرية لشخصية "حي بن يقظان" ترصد لحظات حياته الطبيعية والنفسية والعقلية والوجدانية. إنها رمز للأنا الكوني، وتأريخ لزمنيته الكثيفة، وتتبع لتطوره الروحي. فالذات هنا هي "الأنا" -أنا أوجد، أنا أفكر- الذي يستشعر كينونته ووعيه بوجوده مقارنة بالكائنات والأشياء والموضوعات. تُؤثث رمزية القصة فضاءها الفكري بحضورٍ مؤسسٍ لسؤال "الأنا" الذي يحدس وجوده من خلال جدليته مع الطبيعة والوجود.

وتمثل هذه السيرة الفلسفية استبطانًا للذات في مرآة التأمل، وفي انعكاسية الواقع،

وعبر التاريخ، وهي تتلمس فراغاتها وتناهيها أمام رحابة الوجود. كما تعبر عن اكتشاف قوة العقل وسحر اللغة والقدرة على التغيير والتحكم بالموازاة مع استشعار التناهي واختراق الزمن. فتكشف الذات تغيرها بفعل تواتر الفعل والانفعال؛ النصر (اكتشاف النار)، والانكسار (لحظة موت الظبية)، العزلة وحضور الغير، الصمت والتواصل.

وتبدأ الرمزية مع العنوان الذي هو في نفس الوقت اسم الشخصية وعنوان القصة التي تفيض بحمولة فكرية متعددة المستويات. فـ"حي" تحيل على الحياة أو على الكائن الحيوان، باعتبار أن الإنسان حيوان لا يميزه عن باقي الكائنات سوى العقل، في حين يشير "يقظان" إلى اليقظة الفكرية، فالإنسان ماهيته الفكر وليس الحياة، أو الوجود الطبيعي المعطى، وهذه اليقظة التي ستنتشل "حي" من "الوجود الزائف" الذي يذوب مع الواقع ومجرياته للبحث عن "الوجود الأصيل" الذي يحقق فيه كماله الذاتي، أو لاستعادة "الأنا أفكر" الذي كاد يتلاشى في حياة الغاب.

١- السفر العقلي

لا يهمنا في هذا المقام الوقوف عند حدث ولادة "حي بن يقظان"، وكيف وصل إلى الغابة، وكيف تلقفته الظبية التي رعته وربته حتى نشأ نشأة حيوانية، لأن القصة رمزية وليست تأريخًا، بل ما يهمنا هو أن "حي" نما وتغذى بلبن الظبية، وتعلم المشي، وتطبع بحياة الغاب.

كانت أولى علامات النضج فيه، تتجلى في الفضول الطبيعي، حيث بدأ يرنو إلى استكشاف أبعاد المحيط مشبعًا بالملاحظة والمقارنة؛ ملاحظة الأشياء والمقارنة بينه وبين الحيوانات. فرصْدُ الاختلافات ولدت شعورًا بالاستثناء، ومن ثم ساهم الآخر في رسم أولى الخطوط لتشكيل صورة الذات والوعي بـ"الأنا"، وبدأت تتناسل الأسئلة بفعل اليقظة الفكرية الأولية، لكن في هذا المستوى الأولي، لم يكن الوعي بـ"الأنا" إلا من خلال مرآة الآخر، فهو وعي مقارن وسطحي يركز على الخصائص الظاهرية وعلى التشابه والاختلاف.

ويشكل موت الظبية -التي ربته- منعطفًا حاسمًا وحدثًا فريدًا، ولحظة حاسمة في حياة وفكر حي بن يقظان، ذلك أن هذا الكائن (الظبية) الذي كان يموج

المماثلة بين الجسد والعالم، تستدعي المضي في سبيل البحث عن حقيقة الوجود. فإذا كان الجسد كثرة من الحواس والأعضاء، فإن هذه الكثرة لا معنى لها بدون الروح الذي يؤلف بينها.

حياة

حيوية ويفيض حنانًا، أصبح جسدًا فارغًا من الحياة وجثة هامدة.. أمسى الفكر حائرًا أمام هذا المشهد الذي استنبت جذور الأسئلة الغائبة في تربة القلق، لقد نخر الزمن بأفاعيله هذا الكائن وغادره فأمسى بلا زمن.

"الدهشة أصل التفلسف"، هكذا قال أرسطو معلنًا عن مبدأ الفلسفة. والمبدأ يشير إلى الأساس والبداية التي بدأ معها التفكير الفلسفي. وقد يشير أيضًا إلى النهاية التي يقف معها العقل حائرًا قلقًا متوترًا، يلامس أفق الوجود. ففي الظاهر يبدو العقل متملكًا للموضوع قادرًا على الإحاطة به، وفي الباطن نرى إقرار العقل بحيرته التي تُترجم إلى جهد فكري محايد ومصاحب لتمثلاته الخاصة.

لقد اندمج "حي" في نمط حياة الظبية التي رعته وربته حتى أصبح وجودًا مضافًا إلى وجودها، ومكملاً لها في كبرها وشيخوختها، فكانا بمثابة وجود واحد، لذلك نفهم سر اهتمام "حي" بإشكالية موت الظبية مع أن الغابة تعج دائمًا بحرب وصراع يحصدان الضحايا، لكن اهتمامه يأتي كأرق بوجوده الخاص، إنه انشغال بمصير الذات من خلال الغير.

تحوّل الانشغال بالموت من فزع إلى حزن شديد، كادت معه نفسه تفيض أسفًا وكمدًا. وسرعان ما استحال هذا الحزن إلى فضول فكري باحث عن سر الموت. ارتوى الفضول بالجرأة الفكرية التي تنتشل الإنسان من الوجود الطبيعي المعطى، ليغوص في أغوار المجهول إرواءً لظمإٍ معرفي يستحثه على المضي في درب الأسئلة الكبرى. ذلك هو المنعطف الجذري في حياة "حي بن يقظان"، لقد أعاد اكتشاف إنسانيته.

تراجيديا المفارقة

موت الظبية هو الذي أحيا عقل "حي بن يقظان"، وعليه

hiragate.com

انفتحت آفاق واسعة أمام فكره.. وكان هذا الحدث جسرًا عَبَر من خلاله من عالم الطبيعة إلى عالم ما بعد الطبيعة، إذ بدأ يفكر في الجسد، لكنه اكتشف تفسخه وتحلله، فاتجه تفكيره نحو "ذلك الشيء" الذي غادر الجسد. وتفسر هذه الخطوة سر الاهتمام بـ"الثابت" وإهمال "المتحول"، أي الانشغال بالخالد وتهميش الزائل. هذا الموقف المعرفي سينقلب إلى موقف أخلاقي، يحتقر الجسد وعلائقه ويعلي من شأن الروح.

أصبح الطريق واضحًا أمام "حي بن يقظان"، البحث عن سر الجسد، وسيقوده ذلك للبحث عن سر العالم. فالمماثلة بين الجسد والعالم، تستدعي المضي في سبيل البحث عن حقيقة الوجود. فإذا كان الجسد كثرة من الحواس والأعضاء، فإن هذه الكثرة لا معنى لها بدون الروح الذي يؤلف بينها. وكذلك العالم المتكثر بموجوداته، يستبطن وحدة الصنع والصانع. وكما أن الجسد ليس حيًا بذاته، فكذلك العالم لا قيام له بذاته، بل يحتاج إلى كائن أسمى هو في غاية الكمال وفوق الكمال، وهو الوجود الواجب لذاته المانح للوجود.

توسّل ابن طفيل في الاستدلال على وجود الحق، بمجموعة من البراهين الفلسفية التي كانت متداولة في عصره؛ دليل النظام (دليل العناية)، دليل الكمال (نظرية الفيض)، دليل العلِّيَّة والغائية.. لكن هذه الأدلة لا تعني معرفة حقيقة الله تعالى، بل إثبات وجوده فقط.

فمحاولات معرفة الكامل تصطدم بعجز العقل عن تصوره، وكانت النتيجة تحولاً في الرؤية والمنهج، ذلك أن الموضوع هو الذي يفرض المنهج والأداة؛ فعالم الحس تناسبه الحواس، والمعقولات يلائمها العقل.. أما الخالق تعالى فلا "يحيطون بعلمه" لأنه "ليس كمثله شيء" لغياب المناسبة بين الخالق والمخلوق. وهذا يقتضي استبدال ليس فقط أداة المعرفة، بل أيضًا منهج المعرفة. وهنا ينتقل "حي" من المنهج المعرفي إلى المنهج العرفاني، من الفلسفة إلى التصوف.

٢- السفر الروحي

من الجلي أن فلسفة ابن طفيل التي يعبر عنها "حي بن يقظان" تمزج بين الفكر النظري وبين الذوق العرفاني. فقد بدأت التجربة فلسفية، لتتحول على أعتاب التصوف إلى حكمة إشراقية. فكأنما قصُر سبيل البحث الفلسفي عن متابعة السير في سماء التصوف. ويمكن أن نستعرض بإيجاز أسس المنهج العرفاني عند حي بن يقظان:

أ- الرياضة والمجاهدة: رياضة الجسم ومجاهدة النفس؛ فالجسد هو سجن الروح الذي يعوق انعتاقها لتتصل بالعالم العلوي، أما النفس فهي حبل المشيمة الذي يوثقها بشهوات هذا العالم. لذلك فالحرية الروحانية هي طريق العبودية الخالصة للواحد.

ب- العزلة: فحضور الآخر يشوش صفاء الذكر ويسرق الزمن المنذور للتقرب.

ج- الذكر: فالذكر جلاء القلب الذي هو مرآة الحق.

د- الصمت: فالصمت هو صوم اللسان.

هـ- التأمل: وهو ذكر القلب والعقل والفؤاد، وهو استغراق في المحبوب.

و- الحب: وهو سبب الجذب لسلوك الطريق، والموقظ للهمة، والباعث على الشعور بغبطة روحانية.

ز- الفناء: وفيه يتلاشى الشعور بالوجود، وتمحى ذاتيته عندما يغوص في بحر الغيب.

ح- المشاهدة: وهي هتك الأستار ومطالعة الأسرار ومعاينة الأنوار.

فكان ما كان مما لست أذكره
فظنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر

هناك فرق كبير بين حالة الفلاسفة عند "الاتصال" وبين حال الصوفية، ومرد ذلك إلى الاختلاف بين المنهج العقلي والمنهج الذوقي. فالأول يعتمد على الفكر والتأمل للاتصال بالعقل الفعال، في حين يعمل الثاني على جلاء مرآة القلب لتلقّي التجليات والمنح الإلهية. فالفيلسوف يجتهد بعقله الذي يستفيد المعقولات من العقل الفعال، فيخرجه من القوة إلى الفعل ويصبح "عقلاً مستفادًا".

أما الصوفي فإنه يُعدّ المحل القابل (القلب) لاستقبال الفيض الإلهي. يبدأ العقل الفلسفي من عقل هيولاني بالقوة، ويقف عند أفق العقل المستفاد الذي هو منتهى الفاعلية الإنسانية. فالفيلسوف يسعى بعقله للاتصال بالحقيقة في فضاء العقل الفعال، بينما يرنو الصوفي بقلبه

hiragate.com

hiragate.com

إلى مشاهدة الحق. فهل يتعلق الأمر بوحدة الغاية مع اختلاف الوسائل، أم باختلاف جذري في الوسيلة والغاية؟

الواقع أن موقف ابن طفيل يميل إلى تقريب المسافة بين الفلسفة والتصوف، على اعتبار أن الغاية التي يصل إليها الفيلسوف، هي نفس الغاية التي "يتحقق" بها الصوفي مع إقرار بأفضلية المسلك العرفاني.

صحيح أن الفيلسوف يحقق الاتصال بالعقل الفعال، إلا أنه لا يحظى بنفس اليقين الصوفي. ومع أن الفيلسوف يظل مشككًا في معقولية النهج الصوفي، إلا أن الصوفي يعترف بتعددية الطرق المؤدية إلى الحق. وبالتالي فإذا كان العقل الفلسفي يضيق عن قبول الحق في الاختلاف، فإن الصوفي يعترف بقدرة العقل على ملامسة تخوم فضاء الحقيقة المشترك.

يصور ابن طفيل العلاقة بين المنهج الفلسفي والمسلك الصوفي من خلال مثال شخص خُلق مكفوفًا، إلا أنه جيد الفطرة وقوي الحدس ومسدد الخاطر، نشأ في مدينة وتعرّف على مسالكها وأشخاصها حتى أصبح مستغنيًا عن دليل يرشده، ثم إنه بعد ذلك مَنَّ الله عليه وفتح بصره، فأصبح يمشي في تلك المدينة ولم يجد أمرًا مختلفًا عما كان يعتقده، لكنه حظي بزيادة الوضوح والانبلاج واللذة العظيمة.

فحال الفلاسفة كحال هذا الأعمى الذي بذل جهدًا للتعرف على خريطة المدينة، ومع أنه تمكن من ذلك، إلا أنه لا يمكن أن يقارن مع من فتح الله بصره وبصيرته فرأى المدينة بكل جلاء ووضوح، وأبصر تفاصيلها فتمتّع بجمال مناظرها.

٣- الحكمة المشرقية والجسور المنكسرة

تجسد قصة "حي بن يقظان" حكمة الإشراق أو "الحكمة المشرقية" كما سماها ابن طفيل، وهي حلقة وصل بين الفلسفة والتصوف. وهو اتصال يستمد أساسه من وحدة الحقيقة، وتدعمه وحدة العوالم وترابطها. فالمنطلق الفكري لـ"حي" بدأ حسيًّا طبيعيًّا سرعان ما تحول إلى موقف فلسفي يسائل الكينونة والوجود، لينفتح على أفاق التصوف في لحظة الاتصال بالحق.

فمقاربة الطبيعة من خلال الحس، هو الذي مهد الطريق لإعمال العقل في مساءلة الوجود، وشكل العقل الجسر الذي عبر من خلاله "حي" نحو سلوك العرفان. فتراتبية العوالم واتصالها هو الذي مهد السبيل أمام مدارج الفكر "إذ الكل مرتبط بعضه ببعض، والعالم المحسوس -وإن كان تابعًا للعالم الإلهي- شبيه الظل له، والعالم الإلهي مستغن عنه، فإنه مع ذلك يستحيل فرض عدمه، إذ هو لا محالة تابع للعالم الإلهي".

سيشكل لقاء "حي" مع "أسال" و"سلامان" فرصة لتقرير العلاقة بين "الحكمة" والشريعة. فقد استطاع "حي" التوصل إلى حقائق كونية وميتافيزيقية، ساعدته على بلوغ الإشراق العرفاني عندما تحول من "الفكر" الفلسفي إلى "الذكر" الصوفي. وهذه التجربة الصوفية هي المنهج التعبدي الذي بلغ به "جوهر الدين" قبل علمه بالرسالات أو الكتب السماوية، كونه عاش في جزيرة معزولة منذ نشأته، ولم تبلغه الرسالات السماوية.

التجربة الفكرية التي عاشها "حي" تجربة أسست لمنظور عرفاني يقيم الجسور بين العلم والفلسفة والتصوف والشريعة، على أساس وحدة الغاية والحقيقة. فسواء اتخذ المرء طريقه في العلم أو الفلسفة، فإنه سيصل إلى حقيقة وجود الله ﷻ. هذا الحضور المتعالي في قلب إشكالات الوجود سيعاش في حضرة الحب والفناء، ليلتقي الكل العلم، الفلسفة، التصوف، الدين عند عتبات العرفان.

فبينما يمثل "سلامان" أهل الظاهر أو الشريعة، يمثل "أسال" الشخص الذي وصل إلى باطن الشريعة والحقيقة. وإذا كان الأول يقف عند حرفية الدين، فإن الثاني ينحو منحى التأويل. الأول ملازم للجماعة، والثاني مرابط في عزلته. حدث تقارب بين "حي" و"أسال"، وبالمقابل فشل الحوار مع "سلامان". عاد "حي بن يقظان" إلى جزيرته، وانطوى "أسال" على ذاته، في حين ذاب "سلامان" في جماعته. ربما كان التنبيه على الحوار المفقود في ثقافتنا بين فقهاء الظاهر والصوفية والفلاسفة، هو المغزى من القصة كلها. المؤسف، أن ذلك الفشل ما زال يجثم على ثقافتنا، بل تعمق وتوسع.. والأدهى والأمرّ أن تحل لغة العنف محل الحوار والتواصل، ولم نتجاوز بعد إشكالية القصة. ■

(*) أستاذ بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، إنزكان / المغرب.

hiragate.com

د. محمد فتحي فرج*

من آداب قبول الآخر

إن للإسلام والمسلمين مواقف نبيلة في قبول الآخر والتعايش معه في أمن وأمان وسلام واطمئنان.

فالديانات السماوية مصدرها واحد وهو الله ﷻ، وإن الإسلام جاء ليخاطب البشر جميعًا، ومن ثم فلا بد وأن يتضمن اعترافه بما سبقه من رسالات سماوية، فجوهرها كلها واحد، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾(فصلت:٤٣)، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا

الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(الشورى:١٣).

ونبينا محمد ﷺ يقول: "إن مثَلي ومثَل الأنبياء قبلي كمثَل رجل بنى بيتًا فجمَّله وحسَّنه إلا موضع لبنة في زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" (رواه البخاري).

وقد كفل الإسلام حرية العقيدة بشكل واضح لا لبس فيه، وهي تعني في أبسط وأوضح معانيها، عدم إلزام المواطن على القبول بعقيدة لا يؤمن بها، أو الخروج من عقيدة دخل فيها، كما تعني أيضًا عدم جواز إكراه الشخص على ممالأة إحدى الديانات تحاملاً على غيرها، سواء بإنكارها أو التهوين من شأنها أو الحط من قدرها: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦). وقد تأكد هذا المعنى عدة مرات في القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾(يونس:٩٩).

أما الحكمة من وراء ذلك فتتمثل في أن الإكراه يقهر النفس الإنسانية ويذلها، ويحطم الشخصية الإنسانية، ويزرع في القلوب الضغائن والأحقاد، وقد يؤدي إلى النفور بدلاً من التوافق، وردود الأفعال المناوئة حينما تسنح الفرص وتتهيأ الظروف، كما قد يبذر بذور الرياء والنفاق في المجتمع فيُبدي المُكره غير ما يُبطِن، فضلاً عن أن الإكراه يسيء إلى الإسلام، وبالتالي فالإيمان عن طريق الضغط والإكراه غير مقبول عند الله تعالى، ولهذا دعا الإسلام إلى الدخول فيه طواعية عن حب وإيمان واقتناع.

احترام الإنسان وكرامته

أرسى الإسلام قواعد قبول الآخر واحترامه على الرغم من الاختلاف معه في العقيدة، ذلك لأنه إنسان. ونستشف هذا مما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤).

فهذه الآية وغيرها عامة شاملةٌ كل إنسان، وعلى الإنسان أن يحافظ على هذه الكرامة أو الخلافة؛ فهو مستخلف من الله لعمارة الأرض، وما أرفعها من منزلة، وما أثقلها من أمانة، كلف الله بها الإنسان وقَبِل الإنسان

التسامح الثقافي يتضمن كفالة الحق في الاختلاف مع الآخر عن طريق الحوار المتكافئ. ولا يجوز لأحد أن يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، أو أنه دائمًا على حق، وغيره دائمًا على الباطل.

حملها. فالله تعالى خلق الناس من نفس واحدة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(النساء:١).

ولهذا فينبغي الحرص عند التعامل مع الآخر أو فض الخصومات معه، على قيمةٍ من أنبل قيم الحضارة التي أمر بها الله المسلمين، ألا وهي قيمة العدل: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء:٥٨).

ولقد تكرس مبدأ المساواة بناء على تكريم الله تعالى للإنسان، فهو القائل ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)، وعلى ما ورد عن النبي ﷺ من أحاديث شريفة كثيرة، كما سار على هذا النهج الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم أجمعين؛ وقد أُثِرَ في "نهج البلاغة" قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حينما أوصى واليه على مصر "مالك الأشتر": "واعلم أن الناس صنفان، إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق".

لقد بلغت سماحة الإسلام أن سمح للمسلمين بألا تقتصر تعاملاتهم مع المخالفين لهم في الدين على التعامل الحسن بالقول، بل تعدّى ذلك إلى الفعل والإهداء إليهم.

ورد في صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ قال: "كنَّا مع النبي ﷺ فجاء مشرك مشعان طويل (أي طويل شعث الشعر) بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ: "بيعًا أم عَطية؟" (أو قال: أم هِبة)، فقال: لا، بيع، فاشترى منه شاة؛ وفي الحديث دلالة على جواز بيع غير المسلم وقبول الهدية منه.

hiragate.com

التسامح مع الآخر

من معاني التسامح التقليدية، أنه جهد يقوم به المتسامح لتفادي التصادم مع الآخر إزاء أفعال وهفوات صدرت منه، والتي تكون عادة موضع مؤاخذة ولوم من جانب المجتمع، لأنها لا تتفق مع قيمه، وما تعارف عليه من تقاليد وأعراف.

أما التسامح الثقافي، فإنه يتضمن كفالة الحق في الاختلاف مع الآخر، لا سيما عن طريق الحوار المتكافئ. ولذا فقد شاعت في أيامنا هذه مقولة جديرة بالاعتبار وهي "الاختلاف في الرأي لا يُفسِدُ للود قضية". ومن ثم لا يجوز في المفهوم الحضاري للتسامح، أن يضيق المرء بمن يخالفونه في الرأي، حتى لو كانوا على خطأ وهو على صواب من وجهة نظره، ذلك أنه لا يجوز لأحد أن يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، أو أنه دائمًا على حق، وغيره دائمًا على الباطل.

والتراث الإسلامي مليء بالأمثلة القيمة التي يفوح منها عبير التواضع الجميل، والتي تعبر عن هذا أصدق وأوضح تعبير، ويكفينا مثالاً واحدًا منها؛ فقد أثر عن الإمام الشافعي قوله في هذا الصدد: "رأيُنا صواب يحتمل الخطأ، ورأيُ غيرنا خطأ يحتمل الصواب".

وقد ضرب النبي ﷺ أنبل مَثَل في التسامح -عملاً وقولاً- حينما دخل مكة فاتحًا منتصرًا، راكبًا دابته مطأطئ الرأس، متواضعًا لله مُخبتًا لمولاه، ثم جعل يجري حواره الشهير بينه وبين قومه الذين آذوه من قبل، وأخرجوه بليل من بلده العزيز عليه مكة المكرمة، فابتدرهم بقوله: "ماذا تظنون أني فاعل بكم؟" قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: "لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء".

لا شك في أنه حوار خالد يتردد صداه بطول التاريخ الإنساني، ليعلن للعالم كله أن محمد بن عبد الله ﷺ هو إمام أهل العفو، وقدوة المتسامحين إلى أبد الآبدين. ■

(*) أستاذ علم الحيوان ، جامعة المنوفية / مصر.

هدية للأنام

اِحمها نبتة بكف السلام
اِحمها كي ترقى لأفق التسامي
سوف تكسو ظلالها كل أرض
بجمال وخضرة ووئام
وارْعها لا تنظر لقول حسود
أو حقود عن سر ذاك التنامي
جذرها من روح العطاء تغذى
وشذاها هدية للأنام.

***

أ.د. بركات محمد مراد*

الطفل والذائقة الجمالية

يعد تشكيل الوعي الجمالي لدى الطفل هدفًا تربويًّا أساسيًّا، ولا يتم تشكيل هذا الوعي من خلال الأسرة فقط كأول وسط تربوي يتعامل معه الطفل، بل عبر الوسائل الثقافية والتعليمية والإعلامية التي عليها صياغة وعي الطفل بكل القيم الجمالية حوله، كطاقة تدفع وتحرض ملكاته للعمل متناغمة وعلى نحو متجدد دائمًا. وإذا كان الطفل لا يعي الشكل بالمفهوم الجمالي والاصطلاحي له، فإنه ينتبه لتشكل الصور أو العمل على تذوقها، وهي تلك الصور التي يتيحها له محيطه من خلال الكيفيات التي يمتلكها.

وهناك قصة جديرة بالتسجيل تساعد على تشكيل وتدعيم الوعي التشكيلي والجمالي للطفل، قدّمها الفنان العالمي "جون كلي" لتلاميذه، معتقدًا أن للخطوط وللنقاط وللملمس حياة. وعنون قصة "كلي" "فلنأخذ الخط إلى نزهة"، وعلى الرغم من بساطتها فإنها تدعم وعي الطفل التشكيلي والجمالي بالحدث وتطوره. وتنحدر عبقرية "كلي" في اختياره للخط كبطل ببساطة تعمل على تدعيم ملكة الملاحقة عند الأطفال، وعلى تحريك خياله التشكيلي ووعيه بالعناصر والجزئيات، وذلك مع عدم تعارضه مع طبيعة وعي الطفل الجمالي، ويحرض فيه القدرة على تكوين الصورة ذات المعنى الرمزي الذي يعبر عن شعوره الإنساني، وفي الوقت نفسه تعلّمه في حال كونه نواة فنان لإبداع أشكال أو صور رمزية تمثل الشعور الإنساني.

الإدراك التشكيلي

إن التعريف الأقرب للشمول، هو كونه إدراك حواس الطفل لوحدة العلاقات الشبكية بين الأشياء، بحيث يصبح الطفل قادرًا على التذوق أو الشعور أو الانتباه إلى القيمة الجمالية، أو الكيفية التشكيلية التي تتوحد في شيء ما، سواء أكان طبيعيًّا أو عاديًّا أو عملاً فنيًّا، وهذا الوعي بما فيه من قيم جمالية، على نحو متجدد دائمًا.

وقد أثبتت الدراسات المهتمة بنمو الطفل وارتقائه المعرفي -خصوصًا في السنة الأولى- أن هناك مجالات متعددة يرتقي الطفل من خلالها معرفيًّا، مثل جانب الإدراك، وجانب المعلومات، وجانب التصنيف، وجانب الذاكرة.. ويهمنا في الأساس هنا جانب الإدراك، حيث يكون الطفل قادرًا على إدراك الموضوعات وإدراك بعض خصائصها، كاللون، والخطوط، والأنغام، وغيرها.

أهمية اللغة الفنية

هناك عناصر أخرى مساندة للغة تعتبر عناصر للتجسيد الفني؛ كالأصوات والألوان والأنغام والرسوم. وعلى هذا، فإن الإنسان لا يستعين بلغة الكلام وحدها، بل يستعين بلغة أخرى ليست كلامية، حيث تساعده هذه الأخيرة على التصوير بشكل أكثر دقة ووضوحًا وتجسيدًا. وإذا كانت اللغة اللفظية وعاء الفكر، فإن اللغة غير اللفظية تعد وعاءً آخر له، حيث أتيح للإنسان بفضلها أن يفكر من خلال الأشكال والإشارات والأصوات والألوان والحركات.

والتجسيد الفني يتيح من جانب آخر للعمليات العقلية المعرفية الأخرى، أن تقوم بدورها في استقبال الرسالة الاتصالية وفهمها؛ فالأطفال عند استماعهم، أو مشاهدتهم، أو قراءتهم لمضمون لفظي تسانده الألوان أو الأضواء أو الحركات أو الرسوم، يتذكرون خبرات سابقة، ويتخيلون صورًا جديدة مركبة، فيكون إدراكهم وفهمهم أكثر دقة.

أهمية وسائل الإعلام

يجب أن يتم فعل قراءة الصحف والمجلات أمام الأطفال وعلى ملأ منهم، بما تحمله من أخبار جميلة ومعارف خاصة وعامة غريبة وطريفة. ويتم ذلك بشكل لا يحس الطفل فيه بأنه معني بالقراءة، بل يجب أن تكون قراءة الآباء جهرية يسمع الطفل تفاصيلها دون التوجه المباشر إليه.

وفي مراحل أخرى متقدمة، يمكن أن تكون للمطبوعات المصورة دور هام في حياة الطفل، وعلينا أن ندفعه إلى الاهتمام بها، والاشتراك بالمطبوعات الخاصة بالطفولة، واقتناء ما يناسبه منها؛ فمحتوياتها من الصور والرسوم، تسهم في رفع الحساسية الجمالية والمعرفية لديه بشكل تدريجي غير مباشر لكنه فعال.

أما الكتاب، فيؤدي دورًا آخر، إذ يتعرف الطفل إلى الكتاب عن طريق القراءة المشتركة التي يجب أن تظل أحد أهم اهتمامات الأسرة، في البدء القراء هم الآباء، ثم تنتقل هذه المهمة إلى الأبناء. والقراءة تساعد على توحيد الأذواق وتهذيبها وعلى السمو بها جماليًّا وفنيًّا وخياليًّا، وتعطي لهم من ثم حسًّا نقديًّا ومعرفيًّا عميقًا، ولكي يكون دور الكتاب كبيرًا في تنمية الحس الجمالي، يجب أن تكون مهمة الآباء معتمدة على:

١- مراقبة الانتقاء الجمالي والأدبي لشكل الكتاب ومضمونه.

٢- تدريب الأطفال على القراءة والاستمتاع الجمالي بها.

٣- دفع الطفل إلى العناية بالكتاب والحفاظ عليه نظيفًا ومتسقًا مع غيره من الكتب.

كما أن للسينما والمسرح دورًا آخر في مجال التربية المعرفية والفنية والجمالية، وهي تؤدي دورًا هامًّا في تنمية الحس الجمالي لدى الطفل، فجماليات المسرح المرافقة وإضاءته وديكوراته وصفوفه المنتظمة، كبير الأثر في الرقي بحسه الجمالي وتغذيته.

لطافة الحس الموسيقي

إذا تناولنا الحس الموسيقي لدى الأطفال، نجد أن الجانب الإيقاعي عنصر أصيل في فن العربية الأول، ذلك الفن الذي اختص بالغنائية والوزن والقافية، أبرز العناصر النمطية في حده المعروف، لذا يصبح الإحساس الموسيقي ضرورة ليس فقط في تذوقه وتعليمه، ولكن أيضًا في تنميته والتنبؤ به. ولأن الإيقاع

hiragate.com

hiragate.com

سمة لصيقة بنفس الطفل وأكثر تأثيرًا في مشاعره، فإن الطفل غالبًا ما يعبر عن انفعاله في صورة "حس حركي" كالتصفيق والتنقير، أو التمايل والاهتزاز.

وإذا افتقد الطفل هذا الحس الموسيقي، افتقد الصلاحية لفن العربية الأول، ولعل في قصة الأصمعي مع مؤدبه، ما يدل على أنه كان وقتئذ مبتدئًا، وأن مؤدبه لما لحظه من افتقاده الأذن الموسيقية القادرة على ضبط النغم والتغني به، ألمح إليه أن تعلم العروض لا يغنيه، وصرفه عن صناعة الشعر إلى العلم بأدواته، فكان عالمًا شاعرًا وليس شاعرًا عالمًا. من هنا كان التغني مِقود الموهبة وأحد إرهاصات الطفل المترشح، وليس ذلك إلا لأن هذا الطفل لم يكتمل قاموسه اللغوي، وليس لديه خبرة معرفية أو أدوات لفظية تنهض للتعبير عن ذاته.

إن النمو الموسيقي لا يعتمد كثيرًا على النمو العقلي، فلا توجد علاقة مطردة بين العمرين الزمني والموسيقي، فقد يمتلك طفل في بداية نموه العقلي عبقرية موسيقية مبدعة، كما أن نمو هذه الموهبة قد يكون بقوة عوامل بيولوجية خاصة. وقد لوحظ نمو هذه الموهبة بقوة، فيما بين الثالثة والخامسة عشرة، وهي السن التي يتوقف فيها النمو البدني، ويكون هناك وقت كبير لنمو الملكات الذهنية. وأما الأمر الآخر فهو أن الموسيقى لا تستمد موضوعاتها من الطبيعة، ولا تعتمد على خبرة حياتية، لأن مصدرها وغناءها الرئيس يكمن في الفنان ذاته، وطبيعة الموسيقى المجردة أن تجعل مادتها بعيدة تمامًا عن عالم المحسوسات، وليس ثمة فن آخر يستمد مادة كلية من نفسه ولا يعتمد في نموه على الفنون الأخرى سوى الموسيقى.

الطفولة وعالم اللوحة الجمالي

كيف يقرأ الطفل الأثر الجمالي باللوحة، وإلى أيّ مدى تثير انتباهه واهتمامه؟ للإجابة على هذا، لا بد من تمييز الخصائص التالية في الطفل:

١- الحركة: إن الطفل تثيره الحركة، لذلك يتابع بشغف أفلام الكرتون المتحركة. والأثر الجمالي الحركي هو الذي سيكون فعالاً في استخدامه لتنمية الذوق الجمالي. وتعد الصور والرسوم المتحركة أوعية تعبير ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى الأطفال؛ فهم يعبرون

لا بد أن نحشد كل الجهود التربوية لتنمية الوعي الجمالي عند الطفل بتوثيق صلته بعلم الجمال وفلسفة الفن، وإكسابه القيم الجمالية في الحياة، وتعويده على الترقي برؤيته التشكيلية ومواهبه الإبداعية ومشاعره الإنسانية.

عن أنفسهم بالرسوم منذ عمر مبكر، كما أنهم يستقبلون التعبير من خلالها، ويعنون بكثير من تفصيلاتها، وتنطبع في أذهانهم الصورة الذهنية الموحية. وتشير دراسات عديدة إلى أن الرسم أو الصورة أكثر إقناعًا من الكلمة في كثير من الأحيان. أما الحركات فهي عنصر آخر من عناصر الجاذبية والتشويق، وهي فضلاً عن ذلك تضفي على المواقف والأفكار أبعادًا جديدة.

٢- العناصر الأساسية في اللوحة أو الرسم سواء كانت بشرية أم حيوانية، فإنها تثير انتباهه واهتمامه، وفي الغالب يستمتع أكثر بالأشكال الحيوانية، لأنها ليست تحت بصره ولا يراها إلا في الصور، وهذا بحد ذاته مفتاح جديد يمكن استخدامه في تنمية الحواس الجمالية عند الطفل، من خلال عرض النماذج الحيوانية الجيدة المرفقة بغابات وأشجار وعمائر وتشكيلات طبيعية، وهذا مجال واسع من المجالات التي تسهم في تطوير خياله، وتجعله في حالة استمتاع بصرية وتخيلية دائمة.

٣- اللون: إن عنصر اللون له أهمية كبيرة في اللوحة التي يراها الطفل، وذهب بعض علماء النفس وخصوصًا أولئك الذين ينحون منحى مدرسة التحليل النفسي، إلى تأكيد أهمية الألوان في النفس، خصوصًا وأن هناك اتفاقًا على أن الألوان تساعد في تقديم الأشكال بطريقة مؤثرة نظرًا لاتصال اللون بالحس، خصوصًا وأن الإدراك البصري يقوم على وقوع الموجات الضوئية على العين. وتلعب الألوان دورًا مهمًّا في تحقيق الانسجام والتوازن في الأشكال في عين الطفل وفي كسب انتباهه، وفي إرضاء ميله نحو ألوان معينة.

إن أكثر الألوان استحواذًا على اهتمام الأطفال صغار السن وجذبًا لأبصارهم، هي الألوان الأساسية الثلاثة؛

hiragate.com

الأصفر، الأزرق، الأحمر، بشرط أن تكون زاهية ونظيفة ومفرحة. لذلك يجب أن يكون لهذه الألوان الأساسية الثلاثة، النصيب الأكبر في الرسوم المقدمة للأطفال صغار السن دون أن تمزج بينها، ودون أن تستخدم أية ظلال أو تدرجات في اللون الواحد، وذلك حتى لا يرتبك الطفل الصغير وينفر من الصورة، ويحسن أن تكون مساحات الألوان مفصولة بعضها عن البعض الآخر.

٤ – غرابة الموضوع وطرافة الفكرة: طرافة الموضوع تشد الطفل كثيرًا، فإذا جاء الموضوع عاديًّا، لن يلتفت الطفل إليه، لذلك نجد أكثر الرسامين الكبار الذين يرسمون لوحات تعرض على الأطفال، يجنحون إلى الخيال وإلى الغرابة وإلى الأسطورة، وإلى ما لا يصدق، سواء من حياة الإنسان أو الحيوان أو من جمع النوعين معًا.

أهمية الصورة

في كتب الأطفال، ينبغي أن ترافق الصورةُ دائمًا النصَّ، حيث العلاقة بينهما علاقة وثيقة، فالتصوير والرسم يجسد ما يقوله النص، والنص بدوره يشرح الصورة ويكملها، وبدون ذلك فإنها تصبح صورة ملتبسة المعاني متعددة الطروح، أي يجب أن تتولى الصورة نقل معاني النص وحكائيته، وبهذا تكون الصورة تجسيدًا للنص. ولقد لوحظ أن الصورة تسهل اتصال الطفل فيما بين الثالثة والسادسة بالكتابة، وتحفزه إذا كانت معبرة ناطقة على القيام ببعض الملاحظات حول الحكاية.

وبنظرتنا إلى رسوم الأطفال التي يقومون برسمها، نجد أن فيها فروقًا ظاهرة في التعبير عند الجنسين من الأطفال؛ فالصبيان وخصوصًا بعد سن الثامنة يميلون إلى التعبير الانفعالي التصويري المصحوب ببعض التفاصيل، ولكنهم يرسمون صورًا مبالغًا فيها وفق سعة الأفق ووفق تصور كل منهم، مثلاً يرسمون ضابطًا يعتلي دبابة، جسدُه في حجم الدبابة. أما الفتاة فنراها من خلال رسومها تميل إلي التعبير الزخرفي الممتلئ بالتفصيلات.

وإذا تتبعنا طفلاً لقياس ذكائه، نجد علاقة كبيرة بين رسوم هذا الطفل ومدلولاتها، وبين قدراته الفنية ودرجات ذكائه، وما قد يظهره الطفل من قدرات في تعبيره الفني ومحاولة إيصال مفاهيمه عن طريق الرسوم والألوان.

الذائقة الجمالية

إن تربية الذائقة الجمالية عند الطفل، تقتضي معرفة وثقافة غنية، سواء من لدن الأسرة أو من لدن المربين في المدرسة، أو مؤسسات التعليم الأولي، ويأتي في قائمة هذه المعارف، دراسة الطفولة، ومعرفة ميول الطفل، واهتماماته ودوافعه الشخصية، وما إلى ذلك، ثم تأتي بعد ذلك خطوات يمكن أن نجملها على سبيل المثال لا الحصر فيما يأتي:

١- إثراء بيئة الطفل بالمفردات الجميلة والملائمة لمداركه ومستوى نضجه.

٢- تحقيق الجمال عمليًّا في محيط تفاعل الطفل مع ذاته ومع غيره -كالترتيب، التنسيق، التنظيم- وفق الإمكانيات المتاحة.

٣- العناية بالمظهر الخارجي للإنسان، كالهندام والمأكل والحركة.

٤- تعويد الطفل على الاهتمام بالتفاصيل والأجزاء.

٥- تنبيه الطفل إلى أن الجمال يكمن أحيانًا كثيرة في العلاقات القائمة بين الأشياء، والتنويع المستمر في هذه العلاقات.

٦- التأكيد على أن الجمال ينبع من الداخل أساسًا، بمعنى أن الجمال هو حالة داخلية مثل الفرح والحزن وغيرهما، وهو أيضًا استعداد قبل أي شيء آخر.

لذلك لا بد أن نحشد كل الجهود التربوية لتنمية الوعي الجمالي عند أطفالنا وتشكيله، من خلال جميع الوسائط، والتعامل مع ثقافة الطفل البصرية من خلال لغة التعبير التشكيلي، والتركيز على تنمية قدرته على الاستجابة للعناصر والعلائق البصرية، وإكسابه الخبرات الفنية من خلال معايير موضوعية بسيطة، بالإضافة إلى تنمية سلوكه الابتكاري، وتوثيق صلته بعلم الجمال وفلسفة الفن، وإكسابه القيم الجمالية في الحياة والارتباط بالبيئة وفهمها، وصقل ذوقه وتعويده على الابتكار والترقي برؤيته التشكيلية ومواهبه الإبداعية ومشاعره الإنسانية. ■

(*) قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

hiragate.com

قصة

د. جمال بن فضل الحوشبي*

أرسلكم للحياة لا للموت[1]

١

الطريق من إسطنبول إلى سراييفو يستغرق ساعتين بالطائرة تقريبًا، ولعل المزيج الثقافي العثماني-الأوروبي أكثر ما يسترعي الزائر لهذه المدينة العريقة، ويستحثه لمراجعات تاريخية حضارية طوال رحلته، وبخاصة إذا كان بصحبة نخبة مختارة من كتّاب مجلة "حراء".

أغلقتُ حقيبة السفر، وقبل أن أغادر المنزل فتحتُها من جديد، ثم أخرجت منها المكواة الصغيرة التي اعتدتُ على حملها في رحلاتي. قالت زوجتي:

- هل نسيت شيئًا؟
- كلا، وضعت كل شيء تقريبًا.
- هل ستأخذ معك المكواة؟
- لا.
- كيف ستقوم بكَيّ الثياب إذن؟
- هناك مغسلة في الفندق، ولا داعي لأخذ مزيد من الأمتعة؟

...

لبست الثوب كعادتي، ثم عزمت على استكمال بقية الزيّ العربي قبيل إلقاء كلمتي في هذه الفعالية الثقافية على أرض البوسنة، التي تحتاج لتنوع ثقافي يشعرها

بدفء الأخوّة، والانتماء لموطنها الكبير الذي تفخر به.

...

صباح اليوم التالي هبطت الطائرة في مطار إسطنبول، ومع تناغم نسماتها الباردة وخيوط أشعتها الدافئة انطلقنا برفقة مضيفنا إلى الفندق، ومنه بدأنا جولتنا لزيارة بعض مؤسسات "الخدمة" في القسمين الآسيوي والأوربي، وهناك التقينا بضيوف مجلة "حراء" من خارج تركيا.

العجيب في شأن الزائر لمدارس ومؤسسات "الخدمة"، أنه يشعر في كل زيارة بأنه لا يزال في الصفحات الأولى من السِّفر الكبير، على الرغم من سنوات المعرفة والبحث الأكاديمي التي قضاها حول مشروع "الخدمة" ومؤسساتها. تنوّعت الزيارات في اليومين الأولين، كباقة ورد جميلة تشعرك بعبقرية الفكرة وصاحبها ورجالها.

انبثقت الفكرة الأولى من عقل ووجدان "فتح الله كولن"؛ المفكر الذي أحسن دراسة تاريخه، وأتقن التفاعل مع مجتمعه، واستطاع تشخيص الداء العالمي، ثم أخرج المعرفة النظرية من محتواها العام إلى قالب خبرة جديد في نسيج من الحكمة والإتقان، ليصنع منها في النهاية "مشروع الخدمة".. نغمة الإبداع البشري، ومفخرة الشعب التركي لهذا القرن بدون نزاع.

ولأن مركز الاهتمام في هذا المشروع الحضاري هو "الإنسان"، فقد تعددت مجالات "خدمته" محليًّا وإقليميًّا عبر مدارس وبيوت طلبة، ومؤسسات عابرة للقارات. في جولتنا الأولى تعرفنا على نغمات الجودة التعليمية في "أَنَفَنْ"، و"فاتح"، و"جوشكن"، و"بُرج"، واسترجعنا من خلالها قصة التعليم الهادف الذي انطلق من أرجاء مدرسة "يَمانْلاَر".. كلمة السر الأولى في ملف النجاح التعليمي الكبير الذي حققته تجربة "الخدمة".

توجهنا إلى "وقف الصحفيين والكتّاب"؛ جناح السلام الذي انطلق عاليًا من ضفاف البوسفور، ليجوز العالم داعيًا للسلام والحوار. بعدها وقفنا بإعجاب أمام الحلم المصرفي الكبير الذي طال انتظاره، وتحقق من خلال منظمة رجال الأعمال "تْوسْكُن"، وبنك "آسيا". ثم تجولنا في مجموعة "قَايْناق" الكوكب المعرفي الفريد، المتخصص في النشر الثقافي، وتقديم الدين والتاريخ، والأدب والثقافة إلى الطفل والمرأة والأسرة، بمختلف اللغات الحية، وفي قالب ممتع وبيئة نقية مشوقة.

صبيحة اليوم التالي طرقنا أبواب جريدة "زمان"؛ الصوت الحر الذي يمثل الحقيقة، ولا يقبل يومًا بأساليب الكذب والخداع الإعلامي، وبسببه حازت رضا الجمهور وأصبحت جريدته الأولى بدون منافس. وفي مجموعة "سامانْيُولو" للإعلام، بهرنا التمازج الرائع بين الفكرة والقيمة، وأدركنا حاجة العالم لمبادئ الاتصال الإنساني، التي تفيض من هذا المبنى المتواضع الذي أُسِّس على القيم والمصداقية والحِرفية من أول يوم، وصاغ منظومة إعلامه الهادف قبل أن تكون لديه كاميرا واحدة.

شارفنا أبواب "الأكاديمية" أو "مركز البحوث والعلوم والإنترنت" بإسطنبول في ختام جولتنا، ومن مكتب المشرف العام على مجلة "حراء" وفريقه المتألق على الدوام، اكتشفنا سرّ الإبداع الذي أشرقت منه هذه المجلة، فقد كُتبت ضادها العربية النابضة من مِداد البوسفور، وعلى ضفافه نُسجت أشرعتها التي ظللت سماء العالم العربي قبل أن تجوزه إلى العالم كله.

مؤسسات وبيوتات، ومدارس ومشروعات انتقلت من منافسة نفسها على جوائز الريادة الوطنية، لتُبدع وتُبهر في سماء العالمية.

ذكريات أستعيد معها ذلك الحُلم الجميل الذي رعيناه بقلوبنا ودموعنا ودعواتنا، ونحن نرى كيف قرأ الحاسدون والمتآمرون قصة إخوة "يوسف" من جديد لأجل القضاء عليه، واستبدال قميص طُهره وعدله ورحمته بخِرق بالية لطخوها بظُلمة قلوبهم، وكآبة ظنونهم، ووحشية طباعهم.. متحولين -في عشية مظلمة- بين قائل وقاتل، ومطرح أرضًا، وباحث عن ذئب "بشري"، يصلح لأن يلطخوا فمه بدماء "الخدمة" الحقيقية هذه المرة.

...

وفي مكتب "حراء"..

- مستعدون للانطلاق إلى سراييفو غدًا؟

يتساءل الأستاذ نوزاد، وهو يرحّب بضيوفه.

- بالطبع، كيف هي الأجواء هناك؟

- نحن على مشارف الربيع، والأجواء ممتازة مع برودة معتادة في وقت الصباح.

hiragate.com

hiragate.com

لـم أكـن الوحيد الذي يرتدي الثوب العربي في تلك الرحلـة، فقـد كان هنـاك ثلاثـة أسـاتذة آخريـن. وكعـادة رجال الخدمة -الذين يتقبّلونك كما أنت- لم يطلبوا منا ولو على سبيل التلميح أن نغير ملابسنا.

أقلعـت الطائـرة التركيـة، وبدأت سـماء آسـيا الزرقاء تتوشـح غيوم أوروبا شيئًا فشيئًا.

"عناويـن الكلمـة التـي سـتلقيها توحـي بأنـك تعرف الكثيـر عـن مشـروع الخدمـة" يعلـق الأسـتاذ "جمـال"، وهـو يتصفـح ورقـة العمـل التـي طلبـتُ منـه مراجعتها. لـم نسـتكمل أطـراف الحديـث، فجبال البوسـنة المكللة بالثلـوج أخـذت تلـوح مـن بعيـد، ومنظـر الغيـوم وهـي تداعـب سماءها الجميل.

هبطـت الطائـرة ظهـرًا فـي مطـار سـراييفو الـذي بدا لأول وهلـة متواضعًـا كمطـار مدينـة عاديـة، وفـي صالته الداخليـة تأخرنـا قرابـة نصـف سـاعة قبـل أن نتوجه إلى البـاب الخارجـي حيث كانت تسـتقبلنا الحافلة، وحولها أطفال سراييفو بأيديهم الزهور والحلوى.

انطلقنا صوب بيت الطلبة، نواة عمل "الخدمة" وقلبها النابض، وشـعرنا هناك بدفء الأخوة وآثار الصدق التي واكبـت تأسـيس هـذا المبنـى الأبيـض الجميـل الواقـع فـي أرض مخمليـة خضـراء، ويحـوي فـي جنباتـه طلابًا مـن البوسـنة وخارجهـا. اسـتمعنا لمشـاركات وقصـص ومداخـلات مؤثـرة، ثـم ودّعنا الجميـع بعـد تناول طعام العشـاء واتجهنـا صـوب الفندق. في الجهـة الأخرى من بوابة الفندق يطالعك بيت متفحّم من آثار الحرب يروي قصة الخراب والدمار الذي عاشـته هذه المدينة الجميلة في وقت مضى.

اسـتمتعتُ طـوال ثلاثـة أيـام بمنظر شـروق الشـمس علـى سـفوح المدينـة الخضـراء، وبيوتهـا المترامية التي تبـدو من بعيد كقطـع فسيفسـاء مثبّتـة بإحكام على لوحة جميلة ملونة. ومن نافذة الغرفة شاهدت "الكنيسة" لأول مـرة رأي العيـن، وكنـت أرقب دخـول الفتيـان والفتيات إلـى مدرسـتها وملعبهـا المجـاور، مـع أصـوات الجرس المؤذنة بافتتاح الأبواب وقت شروق الشمس.

كانـت جولتنـا صبـاح ذلـك اليـوم مميـزة، ابتـدأت بزيـارة قبـر الرئيـس "علـي عـزت بيجوفيتـش"؛ الرئيـس الذي اسـتطاع التعامل مـع ظروف الحرب والسـلم معًا، وتمكّـن مـن نفـض رمـاد الأحقـاد والدمـار قبـل أن يقيم دولته الجديدة الواعدة. وبعد السلام عليه توجهنا صوب ينبوع الماء في قلب السوق الشعبي للمدينة القديمة، يقال "إذا شـربت منه اشـتقت للعودة إلى سراييفو من جديد".

انطلقنـا بعدهـا سـيرًا علـى الأقـدام مصعديـن صوب مبنى كلية العلوم الإسـلامية بجامعة سـراييفو، وكان في استقبالنا عميدها وأساتذتها وطلابها، إضافة لعنصر رابـع هـو عبقريتهـا التي جمعت في بوتقـة واحدة بين الأصالة والمعاصرة، ومواكبة احتياجات المكان والزمان. تناولنا الإفطار في مدرسة سراييفو التي خرّجت العلماء وحفّاظ القـرآن الكريـم، ونُصب فـي مدخلها جـدار زُيّن بنقوش أسماء أكثر من مائة عالم وحافظ في المدرسة، قضوا اثناء الحرب وهم يزاولون مهمتهم التعليمية واحدًا تلو الآخر.

تجولنـا في السـوق الشـعبي التاريخي، وشـربنا القهوة التركيـة بمذاقهـا المميـز مـع قطـع الحلوى. الأجـواء هنا توحي بأنك في حيّ من أحياء إسطنبول؛ فالطابـع العثماني فـي العمـارة والثقافـة لا يـزال سـيّد المشـهد. اقترب وقت صـلاة الجمعـة، وتوجـه الوفـد للصـلاة بالمسـجد الكبيـر المجاور سيرًا على الأقدام، مسجد أثري فخم. عدنا لتناول الغـداء فـي الفندق، وبعد صلاة العصر انطلقنا إلى مسـرح سراييفو الوطني أحد أهم وأعرق مسارح البوسنة، لحضور افتتـاح هـذه الفعاليـة الثقافية التي لا تتكرر كثيرًا. المسـرح فخـم متعـدد الطوابـق وقـد اكتـظ بالحاضريـن.. الطـلاب ومنظمـو المؤتمـر يرحبـون بالضيوف، ويوزعـون بطاقات تحـوي جـدول أعمـال المؤتمـر. فقـرات الحفـل والتنظيم يشـعرانك بمقدار الجهد الـذي بُذل طوال الأيام الماضية.

صباح اليوم التالي كنا على موعد مـع زيارة استثنائية لـ"نفق الأمل" الذي تحول اليوم إلى معلم سـياحي بارز. كل صخـرة من صخـور النفق، تحكي قصة المعاناة التي عاشـها البوسـنيون أثنـاء الحصـار الخانق على سـراييفو. بدأ حفر النفق عام ١٩٩٣، واسـتغرق بناؤه سـتة أشـهر، وكان الممـر الوحيـد لأهـل البوسـنة أثنـاء الحرب طوال ثـلاث سـنوات. وغير بعيـد، توجهنا بالحافلـة إلى الغابة الصغيـرة التي تنبـع منها أنهار سـراييفو، ميـاه تتدفق من الأرض ومن بين الصخور، ثم تتجمـع لتتحول إلى نهر،

hiragate.com

ثم أنهار متفرعة تغذي المدينة وما جاورها.

"أرسلتكم للحياة لا للموت".. كلمات خالدة حُقّ لها أن تُنقش في أرفع مكان من أرض البوسنة، ولا تزال ترنّ في أذني بعد خمس سنوات من زيارة مدرسة "الخدمة" الأولى في سراييفو.. قالها الأستاذ "فتح الله كولن" حين ودّع طلابه الثلاثة الذين وجههم هناك خلال الحرب، وسمع أحدهم يودعه بحرارة قائلاً: "ربما لا نلقاك بعد يومنا هذا".

موقف آخر يروي عبقرية هذا الرجل الذي استشرف المستقبل وانتدب هؤلاء الروّاد الثلاثة، لفتح مدرسة الأمل التي ستحتضن أبناء البوسنة، وتفتح لهم آفاق المستقبل حالما تنقشع غيوم الحرب. لم يكن يملك أولئك المعلمون سوى القليل من المال، ولا يزال نفق سراييفو يتذكرهم وهم يتنقلون بين ضفتيه بحثًا عن عمدة المدينة لاستخراج تصريح البناء وسط أصوات الرصاص والقنابل.. تفاعل العمدة مع هذه الهمم فمنحهم قطعة أرض في أطراف المدينة، وعليها قامت المدرسة الأولى، ثم الجامعة العالمية التي تفاخر بها سراييفو اليوم.

...

فعاليات المؤتمر لم تتوقف طوال اليومين الأولين.. تبدأ تمام التاسعة بعد تناول وجبة الإفطار، وتتوقف قبيل الظهر.. غدًا موعد كلمتي، وبعدها ننطلق في رحلة إلى موستار العاصمة الثقافية للبوسنة والهرسك، بنهرها الشهير وجسرها القديم.

توجهت إلى مغسلة الفندق مساء ذلك اليوم، وطلبت منهم "كيّ" الثوب العربي "والشماغ"، وإحضاره صباح اليوم التالي قبل موعد بدء المؤتمر، ونسيت أن أخبرهم بالطريقة التقليدية لكيّ الشماغ.. لم تكن الصدمة متوقفة على إحضار العامل للشماغ صباح اليوم التالي وكأنه منديل أو سفرة طعام مزخرفة، وإنما لأنّ الساعة قاربت الثامنة، ولا فائدة من محاولة إجراء دورة تدريبية في طريقة كيّ الشماغ العربي بمغسلة بوسنية قبيل ساعة من موعد إلقاء كلمة في مؤتمر دولي.. ما العمل إذن؟

نعم.. حقيبة السفر التي كانت معي كثيرًا ما تسعفني في بعض المواقف، فقد كانت تحوي أشياء أحتاجها وأخرى تعود كما هي.. قلّبت الأغراض رأسًا على عقب بحثًا عن المكواة، ولكن بدلاً من ذلك وجدت "النشأ"، وتذكرت بأني أخرجت "المكواة" قبيل مغادرة المنزل بدقائق.. ما فائدة النشأ إذن؟

الثامنة والثلث ولا جديد.. جموع الزوار بدأوا بالحضور، بينما بقية الوفد يتناول وجبة الإفطار في الأسفل.. وأنا أمام المنديل الكبير أتساءل: "هل يمكن إيجاد توليفة مناسبة؟ نشأ وكأس زجاج ومصدر للحرارة يكفي لتثبيت النشأ على الشماغ. لكن من أين أحصل على مصدر الحرارة؟".. وبسرعة كاميرا المراقبة التي تبحث عن شيء مجهول أو معدوم، أخذت أذرع الغرفة الأنيقة حتى وجدت ضالتي.

الثامنة وخمس وثلاثون دقيقة، والأمل الوحيد أصبح معلقًا بالمدفأة البيضاء التي تمتد أنابيبها داخل الغرفة، وتخفف برودة الجو في آخر أيام شتاء سراييفو القارس.. "هل يمكن تحويل الجزء العلوي من أنبوب المدفأة إلى ما يشبه المكوى، بعد رفع درجة الحرارة؟".. سؤال افتراضي تبقى إجابته رهينة استجابة النشأ، ولا مفرّ من المحاولة.

رفعت حرارة المدفأة إلى درجة ملائمة، وأعدت ترتيب الشماغ بطريقة صحيحة، وبدلاً من وضعه على المنضدة كالعادة رفعته بحذر إلى الجزء العلوي من سطح المدفأة.. ثم قمت برشّ النشأ، واستخدمت قاعدة كأس الماء الزجاجي كمكواة، ثم بدأتُ عملية الكيّ.. "تششش".. صوت تحول في تلك الدقائق الحرجة إلى سمفونية موسيقية رائعة، تعجز عن محاكاتها أوركسترا "زوربا" اليوناني. لقد نجحت التجربة بالفعل.. ومعالم الشماغ العربي بدأت تظهر مع إيقاعات هذه السمفونية البوسنية المحببة. وفي تمام التاسعة كنت أجلس بالفعل في المنصة الرئيسية بلباسي التقليدي، ضمن الثلاثة الذين سيقدّمون أوراقهم صبيحة ذلك اليوم. ■

(*) مدير تحرير مجلة مكة، والمشرف على مركز رؤية الثقافي بمكة / المملكة العربية السعودية.

الهوامش

(1) هذه الخاطرة تعود إلى شهر أبريل من عام ٢٠١٤ قبل أن تتعرض مدارس الخدمة ومؤسساتها في تركيا إلى مجازر شرسة على يد حكومة أردوغان تحت ذريعة الانقلاب الفاشل سنة ٢٠١٦.

hiragate.com

د. خالد راتب*

إن كانت نعمة المنصب في إدارة، أو اللقب في جامعة، أو المقام في شركة، تنسينا ذكر خالقنا، أو تضخِّم حس الغفلة في دواخلنا، فإنها نقمة في ثوب نعمة.

الموازين

الفتنة الثقافية

إن ثقافة الإنسان تخضع لمكونات متعددة وظروف بيئية معينة، ومن ثم تتشكل الثقافة من خلال التأثير البيئي، والعادات والتقاليد والأعراف السائدة والأنماط المسيطرة والمهيمنة، كما أن هناك عدة عوامل تؤثر على ثقافة الإنسان، مثل العوامل الدينية، والتعليمية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإعلامية، والشخصيات المحيطة بالإنسان.

كل هذه العوامل لها أثر كبير في تشكيل البنية الثقافية، ودليل ذلك المخرجات الثقافية في المجتمع؛ فهناك الثقافة الإسلامية، واليهودية، والمسيحية.. وهناك المخرجات الفكرية كالثقافة الأحادية، والثقافة العلمانية، والليبرالية، والثقافة التصادمية، والثقافة المتسيبة.

وكثير من الناس -على مختلف مستوياتهم- لا يدركون معنى هذا المصطلح (مصطلح الثقافة)، ومنهم من لم يفهمه الفهم الصحيح، ومنهم من نظر إلى هذا المصطلح نظرة جزئية، ومنهم من قصر الثقافة والتثقيف على فئة بعينها. وتعدد هذه الأفهام والاختلافات ليس من سبيل اختلاف التنوع الذي يصل بنا إلى الثراء المجتمعي، ولكنه من قبيل اختلاف التضاد الذي يؤدي إلى فتنة ثقافية تستأصل الجهود العلمية والإبداعية والحضارية، ويجب على الجميع، خاصة العلماء والمفكرين وأصحاب الجهود العلمية والحضارية وغيرهم بمعاونة المسؤولين، البحث عن أسباب هذه الفتنة الثقافية، ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لوأدها.

فقدان الهوية

لقد شيد أجدادنا حضارات في شتى المجالات، وكان التفاعل الحضاري بين المسلمين وغيرهم تفاعلاً إيجابيًا مع الحفاظ على شخصيتهم وهويتهم، والتمتع بالأهلية الحضارية الكاملة، لتثمر هذه العقول نهضة متسعة الأرجاء.

إن الذي يربط التقدم والتأخر بالإسلام قد يقع في خطأ منهجي؛ لأنه حاكَم الإسلام بأفعال المسلمين، ولو أزال الغشاوة عن عقله وفكر قليلاً لعلم الحقيقة وعرف السبب.. فتقدُّم الغرب، نتيجة لجهد وجهاد علمي وفكري، والعدل الإلهي في هذه المسألة يتعامل مع البشر من خلال أعمالهم وليس من خلال دينهم، كما يتعامل بقاعدة "لكل مجتهد نصيب" ولو كان غير مسلم، كما يتعامل مع كسالى العقل والفكر والإنتاج بنفس الميزان ولو كانوا مسلمين. فمن عمل وأنتج يحصل الثمرة الطيبة، والذي تكاسل لا يحصد إلا نكدًا، قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:٥٨).

إن النجاح الحضاري -كأي نجاح- يحتاج إلى فكر وعقل، ويد منتجة، ومشاركة فاعلة، وإخلاص، وكفاءات، ونهضة إصلاحية شاملة تجمع بين المادة والروح، والدنيا والآخرة.

أسباب الفتنة الثقافية

إن الفتنة الثقافية لها أسباب متعددة ومتشابكة، ومن أهم هذه الأسباب:

١- الجهل الثقافي

إن الجهل الثقافي يصدر معضلات كبيرة جدًّا تعرقل التفاعل الإنساني والحضاري بين الناس، ومن هنا فإن الجهل فتنة يجب دفعها، والثقافة المعاصرة ستصبح فتنة إذا لم يتم التعامل معها برؤية استقلالية ومنهج مستقيم. لذا فإن علاج الفتنة الثقافية بمكوناتها هو التحلّي بالثقافة الإسلامية، فهي الثقافة التي لا تتنازل عن هويتها، ولا تنعزل عمن حولها، فهي ثقافة تعطي وتأخذ، ولكن بمقدار وحساب.

إن الثقافة المنضبطة تتلاقى ولا تتنافر، تتنوع في مادتها. ومن العيب أن نقصر الثقافة على لون واحد من المعارف، ونسقطها على جانب واحد من أنماط الحياة، فبعض الناس يحصر الثقافة في الشكليات والعادات والتقاليد، وبعضه الآخر يحصرها في علم معين وجانب واحد من جوانب الحياة وإن خالفت هذه الثقافة العقائد والأخلاق التي تعد جانبًا مشتركًا ومحترمًا بين الجميع.

فالثقافة المنضبطة شاملة لجميع جوانب الحياة، شريطة أن تنطلق من معايير واضحة وثابتة لا تتعارض مع القيم والأخلاق والعقائد والجوانب الإنسانية، وأن تجمع هذه الثقافة بين الجانب المادي والروحي، حتى يكتب لها البقاء وتصبح نافعة.

٢- الإفراط والتفريط

هناك اتجاهان في التعامل مع المعطيات الثقافية، أو

hiragate.com

hiragate.com

مـع الثقافة على وجه العمـوم والثقافة الغربية على وجه الخصوص، وهذان الاتجاهان هما:

أ- منهـج الإفـراط، أي الانفتـاح المبالـغ فيـه على الغير.

بـ- منهـج التفريـط، أي الانغـلاق المبالـغ فيـه على النفس.

إن التحـرر مـن الفكـر الغربـي وعـدم الذوبـان والاضمحـلال فيـه، لا يعنـي أيضًـا التقوقـع والانغلاق، فالأمـة الإسـلامية فـي نهضتهـا الأولى أفـادت من الأمم التـي عاصرتهـا، وكانـت هـذه الإفادة عاقلـة ومنضبطـة، حيـث لـم تقبـل الثقافـة الغربيـة فـي صورتهـا الخـام، بل شكلتها من جديد بما يوافق المنهج الإسلامي.

٣- الهوة الكبيرة بين القيم والسلوك

هناك هوة كبيرة فاصلة بين القيم والسـلوك، وبين ما هـو كائـن وما ينبغي أن يكون، وهنا يحدث الاضمحلال الثقافي، وعدم القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، والعجـز عـن اتخاذ القـرارات المصيرية، ممـا يضعنا في أزمـة داخليـة تفتـح البـاب علـى مصراعيـه لشـتى أنـواع الغزو الخارجي.

كيفية وأد الفتنة الثقافية

من خلال الوقوف على أسباب الفتنة الثقافية، يمكن لنا وضـع عـلاج ناجـع لوأد هذه الفتنة، ويتمثل هذا العلاج في الآتي:

١- الوقوف على أهم معطيات الحضارة الإسلامية وفهمها فهمًا واعيًا، وإدراك أن الأسـاس الأول -الـذي يحـرم تجـاوزه أو تجاهلـه- لهـذه المعطيـات الحضارية الإسـلامية هو العلم، لذا كانت بداية الرسـالة المحمدية للعالـم كلـه "اقـرأ"، وكل انطلاقـة تفتقـد هـذا الأسـاس فمصيرها الذبول والزوال.

٢- تدعيم الجانب العلمي بالجانب الإيماني والإنساني؛ فـأي حضـارة -وإن اعتمـدت علـى العلـم- خاليـة مـن الجانـب الإيمانـي والإنسـاني، تصبـح حضـارة جافة

تقـدُّم الغـرب، نتيجة لجهد وجهـاد علمي وفكـري، والعـدل الإلهي في هذه المسـألة يتعامل مع البشر من خلال أعمالهم وليس من خلال دينهم.

حراء

كالجثة الهامـدة يشـقى بهـا العالـم؛ لأنها ستسـتخدم في الدمـار والخـراب، وهـذا مـا نشـاهده الآن علـى أرض الواقـع، حيث مشـاهد القتل، وسـطو وتحكم القوي في الضعيف، وامتلاك طائفة معينة لموازين القوة في العالم.

٣- تحقيق التوازن في التعامل مع معطيات الحضارة؛ فـلا إفـراط ولا تفريط، فنأخذ الجانـب الإيجابي من كل الحضـارات، ونتجنـب السـلبيات التـي تضـر، فالإسـلام ليس دينًا منغلقًا على نفسه، وفى الوقت ذاته ليس منفتحًا الانفتاح الذى يفقده هويته وذاتيته.

٤- مراعـاة الجانـب الأخلاقي والسـلوكي: في مراحل السـلم الحضـاري والحرص الشـديد، أن نقدم الأخلاق فـي صورة عملية وسـلوك راق، ونتصدى بحكمة وحلم لكل سلوك وخلق يتنافى مـع الأخلاق الإنسانية الفاضلة التي تعد عاملاً مشتركًا بين الحضارات كلها.

٥- ضـرورة الأخـذ بالمنهـج الانتقائي: نحـن لا نريـد أن نسـتورد قيـم الغيـر كمـا هـي لنبنـي عليهـا حضارتنـا، فهنـا مكمن الخطر الحقيقـي والانهزامية، ومن هنا تظهر ضرورة الأخذ بالمنهج الانتقائي الذي يجنب الأمة فقد الهوية، ويكسـبها اتزانًا حضاريًّا، واستمرارية في العطاء؛ لأن الأمـة التـي تسـتطيع أن تنتقي مـا ينفعها وينهض بها هي أمة واعية، لأنها أعملت فكرها وعقلها واسـتطاعت أن تميـز بيـن النافـع والضار، وهي أمـة يكتب لها البقاء، تفـرض وجودهـا وتنشـر ثقافتهـا التي تحمـي الأمم كلها من المخاطر، وتحقق لهم السعادة الدائمة. ■

(*) دكتوراه في الشريعة الإسلامية / مصر.

hiragate.com

مجدي إبراهيم*

مدينة القباب

لعبت القبة دورًا هامًّا بوصفها عنصرًا من عناصر العمارة الإسلامية في زخرفة وتصميم المنشآت المعمارية المختلفة، واتخذت في كل إقليم طابعًا خاصًّا يميزها ويحدد تاريخ إنشائها. وقد بنى المسلمون القباب أولاً فوق محاريب الجوامع، للدلالة على أهميتها في جدار القبلة، ولتوفير الضوء اللازم لمكان الإمام، إذ جرت العادة على فتح شبابيك ونوافذ برقبة القبة للإضاءة.

كانت المساجد في أيام رسول الله ﷺ تتميز بالبساطة، والتلقائية من حيث البناء والخامات البدائية البسيطة التي استخدمت في بنائها لإقامة الشعائر الدينية. فمسجد المدينة المنورة كان عبارة عن مساحة مربعة، استخدم في بنائه الطين والحجر، وغطي جزء من سقفه بسعف النخيل وطبقة من الطين، يرتكز هذا السقف على بعض جذوع النخيل، ومن ذلك يظهر لنا أنه في أول الفتح الإسلامي لم تستخدم القبة في سقف المساجد.

ولما توسع المسلمون في فتوحاتهم، قاموا ببناء مساجد جديدة في العراق ومصر، مستخدمين في بنائها الخامات البسيطة، كالخشب والجريد وجذوع النخل.. وازدهرت العمارة في عصر الدولة الأموية، فتم بناء المساجد الرائعة في تصاميمها. وتعد قبة الصخرة في بيت المقدس من أهم آثار الأمويين الباقية وأبدعها حتى الآن، وهي أقدم قبة شيدها المسلمون. وقد تأثر المسلمون بالساسانيين والبيزنطيين والقبط في بناء القباب، وأقبلوا على استعمالها في الأضرحة، حتى أطلق الجزء على الكل، وصارت كلمة "قبة" اسمًا للضريح كله.

القبة الأموية

دخلت عناصر جديدة على العمارة المسجدية، مثل المئذنة، والمحراب المجوف، والمنبر، إضافة إلى القبة. ثم استخدم المسلمون القباب الخشبية والحجرية، مستخدمين القطاع الطولي للمخروط، وذلك في تحويل الحجرة المربعة إلى دائرة.

واستعملت القبة على مقياس ضيق في القصور الأموية، وكانت صغيرة الحجم، ونصف كروية، واعتمد على المثلثات الكروية لملأ الفراغ في زوايا الانتقال في القباب بين المسقط المربع والمسقط الدائري.

القبة العباسية

بعد قيام الدولة العباسية تطورت العمارة الإسلامية عما كانت عليه في العهد الأموي، حيث اتصفت العمائر العباسية كالقصور والمساجد بفخامتها، والمساحات الكبيرة التي تحتها، وبرحابة باحتها إذا ما قورنت بمثيلاتها في العصر الأموي. وتميزت من ناحية أخرى بسمك أسوارها المدعمة غالبًا بالأبراج الدائرية الشكل أو بالدعامات الجدارية. كما استخدمت القبة في عمارة المساجد، فنجدها أمام المحراب في بعض مساجد هذا العصر.

القبة السلجوقية

في أيام السلاجقة استخدمت القبة في سقف الأضرحة، وفي ذلك العهد تنوعت أشكال القباب، فظهرت القباب الهرمية الشكل والمخروطية، وقباب لها طبقات مدرجة أو مقرنصة السطح كالتي ظهرت في العراق والشام.

واستخدمت أيضًا في البيمارستانات، إذ يعد البيمارستان النوري أحد الأمثلة لأهم المباني الباقية، ولقد شيده السلطان نور الدين في منتصف القرن السادس الهجري، ليكون مستشفى ومدرسة للطب.

القبة الفاطمية

تتميز القبة الفاطمية بطابع خاص، حيث يتضح ذلك في المظهر العام للعمارة، كاستعمال الآجر والحجر، ولا سيما في تصميم الواجهات والبوابات. ولقد بدأت حلقة جديدة من تطور القباب ومقرنصاتها، وظهرت أول ما ظهرت في قباب السيدة رقية، والشيخ يونس، وأصبح المقرنص في هذه القباب يتكون من مجموعة من الطاقات والعقود المتدرجة، وكان قوامها طابقين أو خطتين. وحدث تطور ثان قبيل انتهاء العصر الفاطمي، وازداد المقرنص تجزئة في قبة أبي الغضنفر، وازداد عدد الطوابق فأصبح ثلاثة.

القبة الأيوبية

استخدم الآجر في بناء القباب في العصر الأيوبي، بينما كان يعتمد على الحجر المنحوت كمادة أساسية في البناء بشكل عام، وأحيانًا في إنشاء القباب.

وقامت العمائر الأيوبية على قبة من طبقتين من المضلعات تزيد في ارتفاعها، وشاع في استخدامها الطاسة المحرزة التي يتكون سطحها من ضلوع محدبة،

استخدمت وسيلة لانتقال المثلثات الكروية التي أصبحت منكسرة عند الزواية في عمائر مدينة حلب خاصة، أيضًا نجد في هذه العمائر أن وسيلة الانتقال بين المسقط المربع والدائري، تعتمد على حجارة منحوتة عند الاستغناء عن رقبة القبة، وإقامة الطاسة مباشرة على قاعدة القبة.. استخدمت في التسقيف أيضًا القباب التي أخذت أشكالاً متعددة منها الطويلة والمتقاطعة، وكانت تبنى أحيانًا بالحجر المنحوت.

القبة المملوكية

لقد أولى المماليك عناية كبيرة واهتمامًا بالغًا للقبة، إذ تعد من أبرز خصائص العمارة في ذلك العصر، فتنوعت أشكالها وكسيت من الداخل والخارج بالزخارف، وزاد ارتفاعها باستخدام الرقبة العالية ذات الطبقتين، إحداهما أسطوانية والأخرى مضلعة، وزاد ارتفاع القبة وأصبح شكلها الخارجي محززًا. وكان بناء القبة آنذاك بالحجر إما على هيئة ملساء، أو ذات ضلوع متلاصقة رفيعة، أو ذات تكوينات زخرفية محفورة، أو بارزة تقوم على عناصر نباتية أو هندسية أو مزيج بينهما. كما ارتفعت القبة بزيادة ارتفاع الطبلة، ولذلك ظهرت القبة البصلية، وقد تمت معالجة الانتقال خارجيًا عن طريق ارتفاع الأركان، يلي ذلك طبلة بفتحات تعلوها قبة بصلية الشكل.

ويعتبر عصر المماليك، نهاية تطور القبة ذات المقرنصات، وقد زاد عدد صفوف المقرنصات فيه فوصلت إلى سبعة وثمانية وتسعة صفوف، حتى إنه شوهد ١٣ صفًا من المقرنصات، وهي تشبه مثيلاتها السورية في أنها موضوعة في إطار مثلثي الشكل، إلا أنها اختلفت عنها في أن كل صف منها تخطيطه منحن بدلاً من انكسارها في مستقيمات.

وعرفت مصر أنواعًا شتى من القباب؛ منها الكروية، والمضلعة، والبيضاوية، بل وجدت أيضًا قبة كبيرة تنتهي في أعلاها بمنور فوقه مثمنة تحمل قبة صغيرة.

وقد ظهر بناء المدافن الكبيرة، ويلاحظ فيها ثراء زخارفها الخارجية، وكلها مبنية من الحجر. ومقابر الخلفاء بالقرافة الشرقية فيها أكبر مجموعة من تلك القباب. ولذلك يجدر أن نسمي مدينة القاهرة بمدينة القباب الإسلامية، وكلها تمتاز بجمال زخارفها الخارجية، وتتكون من زخارف هندسية ونباتية، وبعضها به زخارف مجدولة والأخرى حلزونية، وأشهرها قباب ضريح برقوق، والأشرف برسباي، وقبة السلطان قايتباي بالقرافة.

القبة العثمانية

يعد عصر السلطان سليمان القانوني العصر الذهبي للعمارة الإسلامية، ومن أهم المساجد العثمانية في القاهرة، مسجد سليمان باشا (١٥٢٨م) في القلعة، وقبته محمولة على أربعة مثلثات كروية، ثم مسجد سنان باشا ببولاق (١٥٧٣م)، وتخطيط موضع القبة مربع يحيطه أروقة خارجية من ثلاث جهات عدا الجهة الجنوبية الشرقية،

وهي عبارة عن سقيفات مغطاة بقباب منخفضة شكلها كالطاقية. وتمتاز قبة مسجد الملكة صفية (١٦١٠م) بأنها مسدسة الشكل، ومحمولة على عقود مدببة تسندها روابط متصلة بالحائط. ومن أمثلة المساجد العثمانية في مصر كذلك مسجد محمد بك أبو الذهب (١١٨٨هـ-١٧٧٤م) بميدان الجامع الأزهر، وهو رابع مسجد وضع تصميمه في مصر على طراز مساجد إسطنبول العثمانية، وهو يتفق في تصميمه مع مسجد سنان باشا.

قبة محمد علي باشا

ومن أهم قباب القرن التاسع عشر، قبة مسجد محمد علي الكبير في القلعة، وقد بني على نمط مسجد السلطان أحمد بتركيا. وقد بدئ في إنشائه سنة (١٢٤٦هـ-١٨٣٠م) وتم في سنة (١٢٦٥هـ-١٨٤٨م)، ودفن فيه محمد علي في مقبرة أعدها لنفسه بداخل المسجد. والقبة الكبيرة تتوسط المسجد وحولها أربعة أنصاف قباب، والقبة محمولة على أربعة مثلثات كروية. وخارج المسجد من جهته الشمالية الشرقية، والجنوبية الغربية، وكذا حول الصحن، توجد ممرات مغطاة بالقباب الصغيرة. وقد اقتبس مهندس المسجد الزخارف الموجودة به، من تلك الزخارف العثمانية التي انتشرت في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي مكونة من أوراق نباتية وزهور ملونة وبعض الفواكة وعناقيد العنب. وقد حليت زوايا القباب والعقود بلفظ الجلالة، و"محمد رسول الله "، وأسماء الخلفاء الراشدين.

أَولى المسلمون اهتمامًا عظيمًا بزخرفة القبة من الداخل والخارج، إذ زيَّنوها بزخارف جمعت كثيرًا بين النقوش النباتية والهندسية والكتابية التي تعبر عن مدى براعة المعماري المسلم ومهارته في الإنشاء والفن.

إن المآذن والقباب فهي السمة البارزة في المسجد، حيث أشارت إلى خط سماء المدينة الإسلامية. وعندما غطي صحن المسجد بالقبة أصبح لها أثر في تحديد الشكل المعماري، إذ وفرت الإنارة والتهوية بشكل كبير للمسجد.

أما عندما يريد المعماري تعويض إحساس المصلي بعدم الانفصال عن السماء، فإنه يجعل على السقف القريب من القبلة قبة. هذا وقد حاول المعماري بالقبة ترجمة قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(لقمان:١٠)، على أرض الواقع.

كما استخدمت القبة في أغراض كثيرة، إذ نجدها في المساجد تغطي المسطح أمام المحراب، وتستخدم أيضًا في تغطية مكان الميضأة، كما في قبة الميضأة بمسجد السلطان حسن بالقاهرة، وفي البيمارستانات والحمامات.. وفي مصر وجدت القبة في أبواب القاهرة الفاطمية؛ مثل باب الفتوح، وباب النصر، وباب زويلة.. بالإضافة إلى استخدام القبة في بناء الأضرحة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

أميرة الوصيف*

سر أفريقيا

في رمال الصحراء يغرس الرحالة بأقدامهم لأمتار وأمتار، وتبقى رؤوسهم في الأعالي كالناظرين من شُرفاتهم. تراهم الأعين حقائب ضائعة تسبح بظلالها ضد تيار الرمال. ورحالتنا خمسة، فتاة "عذراء" عيناها رماديتان وشعرها ينساب على كتفيها، و"عجوز" و"ابنتها العمياء" الصغيرة، و"مجنون" يَستطعِم الرمال بأصابعه ولسانه، و"بومبا" الصبي أحد الهاربين من المجاعات الضارية. الضائعون في الصحراء ذاهلون جامدون في أماكنهم، لا يجرؤون على تحريك أكتافهم وأقدامهم وأعناقهم، ربما للحركة موضع آخر صداه في القلب والعقل.

انتَحبت "لينا" العجوز، ابتلعت دمعاتها المالحات، وأحست بسخونة حلقها الجاف، كيف تضم صغيرتها العمياء؟ وكيف تحيك من ذراعيها بيتًا آمنًا للابنة

المسكينة و"أفريقيا" وَريثة الظلام تَخنقها عَبرات المُسِنة، تدفن أذنيها في أحضانِ الصحراء فلا تسمع غير أنات الرحالة وعويلهم؟

وها هو المجنون تشق ابتسامته وجهه نصفين فيبدو وجهًا لشخصين، أحدهما مدفونًا برمال الصحاري لا يَجد قدميه، والآخر طفل في عامه الأول تُعجبه مقالب الطبيعة، ولا يقيم لها وزنًا فيضحك بصوت مَكتوم، ويلحس رملها بلسانه المُرتعش.

"بومبا" والفتاة العذراء، يُجاوران بعضهما، عظام وجه الطفل تكاد أن تخرج من إطار وجهه الأسمر، وعيناه الزيتونيتان بهما بقايا دمع وكأن قلبه المكمود يسأل: هل هرب من الموت ليموت مرةً أخرى؟ تأوهت العذراء كمَن يخدّره الوقت يمشي على أعصابه بعربته الحديدية حتى يستحيل مخدّرًا كليًّا بلا أعصاب.

الرحالة يغوصون في الرمال، ليلهم يُصِر على عناده، يضرب بجناحيه نوافذ الروح، والجميع يبكي ويحتقن إلا المجنون، يأكل الرمل ويبصقه جواره، ويُعيد الكَرّة مرات ومرات. في ثُلث ليلهم الأخير ومض ضوء كاشف، اقترب من الأجساد المتراصة في وضعية تصف كيف يكون المرء منا قبيل الموت.. وجّه الضوء بريقه إلى الوجوه ونوافذ الأعين، وقال في الآذان شيئًا مقدّسًا.

تَمشت أشعة الضوء إلى أجفان الغارقين في الصحراء.. طبع الفجر ملامحه على وجوه الخمسة.. أطلق الراقدون صرخة التصقت بأذن العارف.. خطواته الحكيمة تتجه إلى حيث الرحالة البؤساء ويده شديدة البياض تمسك بقنديل ضخم، إطاره من العاج وأنواره في جلاء الشمس.. اقترب من الغارقين حد التلاصق فانتشر النور في تلك البقعة من الصحراء.. اشرأبت الأعناق بغتة وأرسلوا صيحاتهم إلى سَمع الرجل.. فأشار إلى قلبه وابتسم.. ارتاحت وجوه الخمسة. قبل أن تتجلى الشمس في سماء الصحاري كان الرحالة من الناجين، جالسين القرفصاء في كوخ أحمر يشكون أحوالهم إلى العارف العجوز..

قال "بومبا" مُنتَحبًا مُتحدثًا إلى العارف: "يا أبت.. أنا جائع وإخواني موتى".. رَقّ قلب الرجل لحال "بومبا" وربت بيديه الحانيتين على كتفه المحدوب.. وضع له الطعام وهمس في أذنيه: "نحن إخوانك".

ركضت العذراء الجميلة إلى حيث عباءة العارف وقبلتها برقة.. سألها الرجل وعينه دامعة: "وأنتِ يا ابنتي؟".. أردفت تقول: "يقدمونني قُربانًا يا أبت، وكل رفيقاتي ذُبحِن".

بكى لأجلها العارف.. سَقطت من مُقلتيه دمعة بلورية ذابت فيها آلام الفتاة.. تمتم بصوت رخيم: "لا ينبغي ذَبح ملاك".

مشى الرجل بخطاه الوئيدة إلى حيث العجوز وابنتها، سمع أنفاسها المبهورة، وحط جوارهما كعصفور طيب، لَفّ الصغيرة بذراعيه وسألها: "ما اسمك يا حلوة؟" فقالت بصوت عذب: "أفريقيا". واستطردت تحكي: "أمي طيبة لكنني عمياء".

انتحبت روح العارف وهطلت من عينيه أمطار الحزن، وأنصت كطفل إلى حديث "أفريقيا" التي انطلق كلامها كالسهم بحصافة لا يعرفها طفل، تغنت الكلمات على شفتيها قائلة:

"نحن فقراء لا نملك غير آنيتين فارغتين.. جدتي تحبني وتريدني ثرية.. طلب منا الرجل الهبوط إلى مقبرة فرعون ليحبنا ونصبح أثرياء.. كانت جدتي في الخارج، وأما أنا فكنت داخل المقبرة بصحبة "عمي الحفار".. كان يريدني أن أنام في المقبرة، إلا أنها تهدمت ونحن داخلها.. مات عمي الحفار وأصبحت أنا عمياء.. يبدو أن الفرعون لا يحبني يا أبت، صحيح؟"

أطعمها العارف.. احتضن الصغيرة وقال لأفريقيا وأمها: "الأحياء لا يقدمون القرابين للموتى".. ثم تابع: "والله يعلم ويسمع ويرى".

تهللت أسارير الرحالة، وسَرت الطمأنينة في أوصالهم، وحمدوا الله وشكروا العارف.. إلا انهم كانوا أربعة.. فأين المجنون؟

لم يلتفت إليه العارف ولم يكن من الناجين.. لم يسأل عنه أحد ولم يأخذ بيده.. ما زال هناك في تلك البقعة الصحراوية يأكل حفنات من الرمل ويبصقها من جديد.. يبدو وجهه باسمًا وهو يحترق من الداخل. ■

(*) كاتبة وأديبة مصرية.

hiragate.com

قطوف
فتح الله كولن*

ذرة من عمل خالص

١

احرصوا على العمق في العبودية.. أَولوا الإخلاص عناية خاصة.. الإخلاص يمنح العمقَ قيمتَه الحقيقية. ذرة من عمل خالص تَفضُل أطنانًا من عمل بلا إخلاص. تحرّوا مرضاة الله في أعمالكم. إن رضي هو وغضب العالمُ كله فلا يهمّ، إن قَبِل هو ورفض العالمُ كله فلا ضير. إن رضي الله عنكم وقبل بكم واقتضت حكمته ذلك، يوجّه قلوب الناس إليكم بالقبول حتى وإن لم تطلبوا ذلك. لتكن غايتنا الأساس في هذه الخدمة المباركة تحقيق مرضاته سبحانه لا غير.. الأمر مكفول بعناية الله.. فعلينا بالجدّ والإتقان، وعلينا بالإخلاص والتجرد.

لو منحوني وسام "فاتح العالم"

لا تستحق الدنيا البقاء فيها إن لم نعلّق حياتنا فيها بغاية سامية. هذه قناعة القطمير (يقصد نفسه). أجل، إن لم أعرّف العالم بمَلِك الملوك سبحانه وأبذل قصارى جهدي في ذلك، إن لم أغرس محبة الحبيب المصطفى ﷺ في القلوب، إن لم أعمل على هداية الناس إلى الله، إن لم أكن هائمًا بغاية سامية كهذه -أرجو أن تعذروني سأقول شيئًا أقوله لنفسي دائمًا- فسأعدّ نفسي حمارًا حتى لو منحوني وسام "فاتح العالم". الحبيب المصطفى ﷺ يأمرنا -فداه روحي- بأن "حببوا الله إلى عباده يحببكم الله". اغرسوا محبته في القلوب يحببكم الله.. هناك مقابلة خاصة.. تَوجّه إلى الله بقطرة يقابلك ببحر، تقدم نحوه بذرّة يقابلك بشمس، تقدم إليه بعالم فانٍ يمنحك عالمًا خالدًا.

إزالة الموانع بين العباد ورب العباد

هناك مفهوم يعبر عن فلسفتنا في "دعوة الخدمة" نكرره دائمًا: "العيش من أجل الآخرين". أجل، أن تقول إنما أعيش من أجل أن يعيش الناس، إنما أعيش من أجل أن يتواصل الناس مع الله، أن تتصل قلوب العباد بالله، أن تزول الموانع بين العباد ورب العباد، ثم ليحدثْ لي بعد ذلك ما يحدث، لا أبالي؛ يأتي الظالم يركلني لا ضير، يصادر ممتلكاتي لا بأس، يأتي آخرون يعلنونني إرهابيا، يفتري سفيههم بأننا فرقة ضالة.. دعوهم يقولون ما يشاؤون. كل يعمل على شاكلته، كل يعبر عن سجيته. لا تكترثوا، لا تبالوا، أغمضوا أعينكم عنهم، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(الفرقان:٧٢). عباد الله الخُلّص عندما تتحرش بهم عبارات تافهة أو تصرفات سمجة يمرون من عندها بوقار. إذا سمعتَ كلاما تافها من هؤلاء الجاهلين قل لهم "سلاما" وواصل في سيرك كما تُعلِّمنا سورة الفرقان.

صادروا ممتلكاته فقال

سمعت مرارًا من غير واحد من الإخوة في حركة الخدمة؛ ممن كانوا أبطالاً في البذل والعطاء والإنفاق وصادرت الحكومة التركية ممتلكاتهم ظلمًا في الآونة الأخيرة، يقول: "أنا بدأت عملي أجيرًا بسيطًا، ثم جئت إلى إسطنبول، اشتريت أرضًا بمكسبي المتواضع، الأرض جاءت بأرض أخرى، الأرض أنجبت مبنى، المبنى أنجب مبنى آخر، ومن ريعه أنشئت مبان أخرى، ومنها أنشئت فيلل، ومنها أنشئت مساجد عملاقة، كذلك الذي أنشئ في جنوب أفريقيا.. كان الله هو المعطي يومها، وهو اليوم يأخذها"، يحكي ذلك مبتسمًا. يقول "قلبي مطمئن، الله أعطى والله أخذ". ولا يكتفي بهذا، بل يبرر الأخذ فيقول: "لعل شيئًا من حظ النفس خالط هذا الكسب، لعل الحساب عليه سيكون شاقًا في الدار الأخرى، فأخذه الله هنا ليعفيني من الحساب هناك".. هذا تفكير أبطال الإنفاق عندكم.

في اللحظات الأولى من الصدمة ينبغي الاعتصام بالصبر.. فخر الإنسانية ﷺ يقول: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" (رواه البخاري). عندما يطعنونك بالإبرة صُرّ على أسنانك ولا تقل "أف".. سنستمر على هذا النحو، سنصبر عند الصدمة الأولى وبعدها ولا نشكو. رأينا شدة الدهر، على الله توكلنا.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. حسبنا الله ونعم الوكيل. نعم المولى ونعم النصير.. هذه أنفاسنا التي نرددها.. حسبنا الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. وبهذه الكلمات سنختم حياتنا. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش. هذه النصوص مترجمة من دروس الأستاذ الخاصة.

الزبير مهداد*

الإعلام
وتكوين الصورة الذهنية

يعد الإعلام الجديد من أهم نتاجات العقل البشري، التي أسهمت بشكل بارز في تيسير حياة الناس، بما أتاحته لهم من فرص لتحقيق منافعهم وتبادُل مصالحهم، وبلوغ درجاتٍ أكبر من التطور الذي تفرضه أساليب الحياة الجديدة، ومتطلبات العصر التي تنمو وتتنوع كل يوم. ولقد تعددت إيجابياته، وتضافرت حسناتُه على الفرد والمجتمع والكون برمته، حتى أصبح من الصعب تحقيقُ المستوى المعيشي والتواصلي المطلوب بدونه، بل وأضحى عنصرًا هامًّا من هذا الكون الذي نعيش فيه؛ وذلك لأنه يخدم مستوياتٍ كثيرةً من واقعهم ومجتمعهم.

أصبح تداول المعلومات عبر الأجهزة الحديثة ضرورة لا مناص منها، والشغل الشاغل لجيل اليوم، حيث أخذت تؤثر عليه سلبًا وإيجابًا وفقًا لدرجات ودراية التوظيف السليم، الأمر الذي جعل لها آثارًا

عديدة على الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والمالية وغيرها. ومحاسن الإعلام الجديد كثيرة متعددة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- تيسير التواصل وفتح آفاقه

أصبح الوصول إلى الخبر والحدث وتفاصيل الوقائع أينما حصلت في العالم، ممكنًا في مدة وجيزة جدًّا، وأصبح ممكنًا أيضًا ترجمة الخبر إلى اللغة التي يتقنها المتصفح بسرعة وسهولة، بل وتجاوز الإعلام وظيفة نقل الخبر إلى تقديم التحليل والتفسير، بعد أن كان مثل هذا العمل يحتاج زمنًا طويلاً أو أيامًا عديدة. وهذا التواصل لم يعد ينحصر بين طرفين اثنين، بل أصبح ممكنًا تعدد الأطراف مهما نأت بهم المسافات.. لقد سقطت الحواجز وانمحت الحدود.

٢- سهولة وتعدد مصادر المعلومات

أكدت أبحاث كثيرة أن دوافع استخدام الشباب لشبكة الإنترنت، هو البحث عن المعلومة في المقام الأول؛ فقد أتاحت محركات البحث -مثل جوجل وياهو ويوتيوب- للشباب فرصًا ذهبية للوصول إلى المعلومات والاطلاع عليها، ولبَّتْ هذا الحق الإنساني الهام. فقد أصبح الوصول إلى المعلومات ممكنًا وبسرعة هائلة، وبالكمية الكافية، والشكل المتنوع.

٣- توعية المواطنين

الوعي هو فهم وتحليل وتفسير للمعلومات، ويتطور طرديًّا مع الحياة الاجتماعية للشخص، وتفاعله القائم بينه وبين الموضوع الذي يتعامل معه. والإعلام الجديد التفاعلي الحر، أسهم بشكل لافت في رفع الوعي السياسي والاجتماعي والبيئي لدى الشباب، وأثّر فيهم وغيّر اتجاههم نحو كثير من القضايا.

التأثير والتغيير

الإعلام الجديد يعمل على تزويد الشخص بالمعلومات وتشريبه إياها حتى تشكِّل مكونًا من مكونات ثقافته، فتؤثر في مواقفه بتعديلها وتغييرها، ليأتي سلوكه مطابقًا لما تزود به من معلومات.. ومن خلال الفرد يتم التأثير في المجتمع، ومن ثم تسهم المعلومة في صياغة وبناء الواقع الجديد. فالتغيير المعرفي هو أحد مجالات عمل

يتعين على المدرسة تنمية القدرة النقدية لدى الشباب إزاء الخطاب الإعلامي، وذلك من خلال تعليمهم كيفية استخراج الرسالة المضمنة فيه، وتعريفهم ماذا يراد بالعمل الإعلامي.

الإعلام الجديد، والتأثر هو تغير يقع إما في التفكير أو في المشاعر أو في السلوك، بسبب تلقي الرسالة الاتصالية. ولمعرفة هذا التأثير نحتاج إلى سبر التغييرات الفكرية أو الشعورية أو السلوكية أو المعرفية الناتجة عن إطلاق الرسالة الاتصالية ودراستها.

كيفية تأثير الإعلام

إن كمَّ المعلومات الهائل، التي يتلقاها الفرد في شكل صور جامدة أو لقطات فيديو متحركة أو بيانات ورسوم توضيحية أو غيرها، يُخضعها للتقييم الأولي، ثم يقرر قبولها أو رفضها. وهو غالبًا ما يقبل المعلومات التي تتفق مع ميوله وأهدافه ومخزونه المعرفي، أما إذا تناقضت المعلومات مع مخزونه المعرفي، فإنه يرفضها أو يعدّلها.

إن قبول معلومات جديدة، يؤدي إلى إحداث تغيير جزئي أو كلي في طبيعة المخزون المعرفي للإنسان؛ فالأفكار الجديدة التي يقبلها عقل الإنسان سوف تطرد القديمة، ما يؤدي إلى أداة تشكيل وحدات المخزون المعرفي من جديد، فيحصل التغيير المعرفي الذي أشرنا إليه. والتغيير المعرفي هو درجة متقدمة من تأثير وسائل الإعلام في حياة الإنسان، يمر بعملية تحول بطيئة تستغرق زمنًا طويلاً، لأن تأثير وسائل الإعلام في التكوين المعرفي للأفراد، يحدث من خلال التعرض طويل المدى لوسائل الإعلام كمصدر للمعلومة، فتقوم باجتثاث الأصول المعرفية القائمة لقضية أو لمجموعة قضايا لدى الأفراد، وإحلال أصول معرفية جديدة بدلاً منها.

إن الإعلام يؤثر بطريقتين؛ الأولى تغيير معلومات المتلقي، والثانية تغيير اتجاهاته ومواقفه العاطفية، وهو ما يؤدي إلى بناء نموذج إدراكي جديد يتأسس على الخبرات الجديدة، والحالة النفسية للمدرك وقدراته العقلية. فالخبرات البصرية والتصنيفات والتقييمات التي يقدمها

hiragate.com

الإعلام، والتي يوظفها الفرد في بناء النموذج الإدراكي الذي يشكل نظامًا تأويليًّا للعالم أو نموذجًا إدراكيًّا يتوسط بين الإنسان والعالم الحقيقي، هو الذي يمكنه من امتلاك نظام تأويلي للعالم. وقد أصبح هذا النموذج الإدراكي معممًا بدوره، وهو يتيح التقبل المباشر لكل منتجات الاتصال التقنية عبر تعميم نظام قيم وتفضيلات خاصة.

تكوين الصورة

إن تكوين الصورة الذهنية هي عملية حركية، تتغير وتتبدل حسب تطور الواقع الاجتماعي، وتغير الأوضاع الاقتصادية، والظروف السياسية والثقافية، لذلك فهي لا تتصف بالثبات والجمود، وتتسم بالمرونة والتفاعل المستمر، فتتطور وتنمو وتتسع وتتعدد وتتعمق، وتقبل التغير طوال الحياة. أمّا الصورة النمطية فهي ثابتة متحيزة سلبية في الغالب، تقاوم التغيير. يعد الإعلام الجديد أهم القنوات التي تسهم في تشكيل الصور الذهنية في أذهان الشباب وتكوينها، بمنحهم الإحساس بالقدرة على احتضان العالم في عقولهم كمنظومة من الصور.

وسائل الإعلام مصدر رئيس للصور وللمعلومات عن الدول والأحداث والأشخاص، ويوميًّا يتعرض النشء لشلال من الأخبار ووجهات النظر واللقطات الفوتوغرافية والفيديو والعناوين، التي من شأنها أن تؤدي إلى خلق صورة ذهنية أو صورة نمطية تساعده على تكوين تصور للعالم الذي يعيش فيه. وتخضع عملية تكوين الصورة وفقًا للبعد الزمني، إذ يقوم الشاب ببناء الصورة وفقًا للمعلومات التي تَرِد إليه.

وهنا مربط الفرس، فالإعلام الجديد يقوم بتقديم المعلومات ودعمها وترسيخها وتوجيهها بالطريقة التي يحددها المتحكمون فيه، مما يؤدي إلى نشأة صورة ذهنية جديدة معينة لم تكن موجودة، أو إلى تقوية تصورات معينة موجودة، أو يعمل على تحويل وتعديل التصورات وتغييرها.

فهذا الإعلام لا ينقل المعلومات فقط، بل يوجه الشباب ويكوّن مواقفهم الفكرية والاجتماعية. ودوره لا يقف عند صنع الصورة فقط، بل ينظمها ويطبعها في أذهان الشباب، خاصة حين يكون الموضوع جديدًا. فالشباب يتقبل وجهة النظر التي يتلقاها عن الإعلام، ذلك لأن العمليات الانتقائية لن تقف -في تلك الحالة- عقبة في وجه المعرفة. ومن ثم أصبح الإعلام النافذة التي يطل الفرد من خلالها على العالم وعلى الأحداث المحلية والكونية، وأضحى الإعلام الجديد امتدادًا طبيعيًّا لبصرنا وسمعنا على حد تعبير "مارشال ماكلوهان". وبهذه المعلومات والصور والتحليلات المقدمة في قالب خاص وبلغة محددة وأسلوب موجه، يبني الشاب الجانب الإدراكي حول موضوع أو شخص أو أمة، مما يؤدي في النهاية إلى إحداث ميل سيكولوجي لدى الفرد يؤثر بدوره في بناء ومحتوى الصورة لديه.

خصوصية تأثير هذه الوسائل تكمن في أنها تؤثر على الفرد من خلال إعادة صياغة بنيته الإدراكية بكاملها، أي إنها ليست مجرد محتوى، بل هي صيرورة فكرية وإدراكية تفرضها طبيعة هذا الإعلام وخصوصياته.

طرق وأساليب

يستعمل الإعلام عدة أساليب في صنع الصورة الذهنية، منها انتقاء الأحداث والمعلومات، والتركيز على أحداث معينة، وتلوين الحقائق وتحريفها، واستخدام عبارات ومصطلحات خاصة ومؤثرة. كما يستعمل أساليب إخبارية مدروسة بدقة تقوي الأساليب السابقة، نذكر منها شخصنة المواقف والأحداث، وتنميط المواقف والأحداث من خلال تقديم تفسيرات نمطية لها، وتجزيء المواقف والأحداث بعزل وعدم ربط القصص الإخبارية عن بعضها البعض، أو محاولة إيجاد الروابط بينها بحيث تبدو الأخبار منفصلة يغيب فيها العمق الإخباري.

إن الخطر لا يكمن في الإعلام بحد ذاته أو في أجهزته ومضمونه، بل يكمن في طريقة معالجته للمعلومات والأحداث والمضامين؛ كتضخيم الإعلام للوقائع أو تحريفها، وانتفاء الأمانة والدقة في نقلها ووصفها وطبعها بقوة في الأذهان، إلى درجة شعور المتلقي وكأنه عاش الأحداث الواردة في الخبر رغم أنه لم يعشها أبدًا. لذلك صنف الباحث الكندي "مارشال ماكلوهان" وسائل الإعلام إلى نوعين:

١- وسائل باردة: تتطلب هذه الوسائل من المتلقي، بذل جهد في المشاركة والمعايشة والاندماج وفك الرموز، للربط بين الجمل والعبارات، والبحث عن

hiragate.com

hiragate.com

معانيها، واستحضار ما يختزنه عقله من معاجم أو قواعد، ما يستدعي منه اندماجًا في الرسالة، وتفاعلاً قويًّا مع مضمونها وتأويلها، وبالتالي إعادة إنتاجها. وهذه العمليات لا يستوي فيها الناس لاختلاف قدراتهم العقلية والمعرفية. ومن هذه الرسائل، الكتابة، والهاتف، وبعض البرامج التلفزيونية وليس كلها.

٢– وسائل حارة: هذه الوسائل تزود الإنسان بعناصر إخبارية وافية، وتمده بالوسائل التي تمكنه من فك رموزها وفهم مضمونها بسهولة، أي إنها لا تستدعي تفكيرًا عميقًا واستحضارًا للذاكرة ومهارة التحليل أو شيء من ذلك.. فالوسيلة تعرض الرسالة بشكل يكون فهمها في متناول الجميع مهما اختلفت مستوياتهم العقلية والمعرفية، تعفيهم من التأويلات الخاصة، ومن التدخل في إعادة إنتاج مضمونها.. ومن هذه الوسائل، الصور السينمائية، والتلفزيونية، والإذاعة، والإعلام المطبوع من جرائد ومجلات إخبارية. ويؤكد "ماكلوهان" أن وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع، ستحدد طبيعته، وتعين قيمه وكيفية معالجة مشاكله، فالوسيلة تشكل الظروف المؤثرة على طريقة التفكير والعمل.

وترتبط قوة التأثير بطول فترة التعرض لتأثير الإعلام؛ فعملية التعرض الطويلة المدى لوسائل الإعلام -كمصدر للمعلومات- تؤدي إلى اجتثاث الأصول المعرفية القائمة لمسألة أو لمجموعة من المسائل لدى الأفراد، وإحلال أصول معرفية جديدة بدلاً منها. إن تأثير وسائل الإعلام في طريقة تفكيرنا وأسلوب تقييمنا للأشياء من خلال ما نتلقاه منها من معلومات، يؤدي إلى تحولٍ في قناعاتنا وفي معتقداتنا.

وهكذا يحدث التغيير المعرفي عبر وسائل الإعلام، وتتداخل فيها عوامل كثيرة، مثل شخصية الإنسان وبنيته الاجتماعية وتشكيله الثقافي، ونفوذ قوى الضغط الاجتماعي المضادة في المجتمع. إن وسائل الإعلام تستطيع أن تُحدث تغيرًا معرفيًّا لدى الجمهور متى استطاعت أن توظف العوامل السابقة وتوجهها في إيقاع واحد متناغم، يعجل بالتغيير المعرفي المنشود.

أهمية التربية الإعلامية

إن عملية التغيير المعرفي السريعة والمذهلة التي نعيشها، لا تعني هشاشة ثقافتنا، ولا ضعف مناعة نظامنا القيمي ضد الثقافات الغازية. إننا أمام اكتساح لوسائل الإعلام الجديد لأطفالنا وشبابنا، وهم الأكثر إقبالاً على وسائل الإعلام الجديد، والأقل تحصينًا من مغبة السقوط الأخلاقي، وخلخلة النظام القيمي والاجتماعي. ينبغي العمل على تكوين مستهلك ذكي للإعلام، وينبغي كذلك أن تكون هناك خطة تربوية في المدرسة لتكوين مشاهدين أحرار، لأن المدرسة هي التي تجعل الإعلام الجديد تربويًّا، وتستثمر محتواه استثمارًا تربويًّا وتعليميًّا نافعًا.

ينبغي على المدرسة أن تطور منهاجها بمواد جديدة تعرّف التلاميذ بالإعلام الجديد، وآلياته ولغاته وطرقه ووسائله.. كما أن على المدرسة ألاّ تحصر عملها في تعليم المتعلم قراءة النص المكتوب فقط، ففي عالمنا اليوم أشياء كثيرة تحتاج القراءة، ونحن أميون في مواجهتها، كالفيلم السينمائي، ولقطات الفيديو، وبرامج التلفزيون، والإعلانات التجارية، وسائر المشاهد المصورة.. فيتعين تعليم التلاميذ فك رموزها.

ويتعين على المدرسة تنمية القدرة النقدية للأطفال والشباب إزاء الخطاب الإعلامي، بتعليمهم كيفية استخراج الرسالة المضمنة فيه، حتى يأخذ بعدًا عن المشهد ولا يبقى مستلبًا به، وأن يعرف ماذا يراد بالعمل الإعلامي، وما نوع العمل المعروض عليه، وما هي تقنياته ومراحله، وأن يتعلم كيفية استثمار المشهد الإعلامي والاستفادة من تقنياته، وكيف يرقى إلى كنه الرسالة الإعلامية ويتحصن بالحيطة إزاء خطاباتها.

إن الرسالة الإعلامية توظف رموزًا تحمل مختلف المعاني؛ تستعمل للشرح والتوضيح، والخداع والإثارة، والتعمية والتضليل، وإثارة الغرائز وإحداق الصراع، والحض على الفعل وغير ذلك.. ومعرفة هذه الرموز تعين على فهم الرسالة وسبر أغوارها، والتحكم في آثارها. فيجب أن يتعلم الشاب كيف يقرأ ويسمع، ويشاهد ما يدور حوله بعين نافذة وفكر ناقد، حتى يكتشف الطريقة الصحيحة للتعبير عن أفكاره، ويحقق أحسن تواصل مع غيره. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

hiragate.com

د. سليمان عشراتي*

صناعة المتلقي الفاعل

إن من أهم ما يساعد المتحدث على توسيع دائرة تأثيره في السامعين، أن يتوخى تبسيط عروضه، ولا يعني التبسيط التسطيح -هنا- كما هي حال كثرة كاثرة من الوعاظ والقصاصين، وكان القاص هو الواعظ في القرن الأول الهجري. فعلى قدر ما تنفر النفوس من الحذلقة الخطابية، والتقعر اللفظي، والإعضال الأسلوبي، فإنها تنفر على نحو أسوأ من المبتذل المستهلك، وذلك حين تجد أن ما يعرض أمامها وما يقدم لها، هو فطير غير ذي سُمك ولا عمق.

إن النفوس تشيح سريعًا عن أي خطاب لا تجد فيه ما يشدّها ويستهويها.. وللموقف سلطان وأجواء تحكمه؛ فموقف الهزل لا يحتمل

أن تكون مادته باردة، وكذا موقف الجد لا يستسيغ أن يمازجه استهتار.

وتنتهي خلوصية فن التبليغ والتوصيل إلى ذروتها، حين يكون المقام مقام توحيد وتذكير.

العصر ليس عصر القصاص والواعظين

وإذا كانت مجالس الوعظ قد ظلت -طيلة القرون الماضية- تتأدَّى بخطاب يحفل بفذلكات الكلاميين ومسكوكات القصاص والشراح، ممن فتئوا يقولون ويعيدون القول على القول في توصيف ذات الله وصفاته، راغبين بالنفاذ إلى القلوب وغرس الإيمان بوجود الخالق، فإن تحولات العصر الحديث، بما عرف من توسعات مذهلة في مجال التمدن والتجهيز، وما استتبع ذلك من انتشار الثقافات والمعارف، ومن تَطورٍ عقلي باتت به البشرية أكثر موضوعية في فهم الكون واستكشاف مجاهيله المادية، وفقه غوامضه الحسية، الأمر الذي جعل مسائل الروح والماوراء تتراجع من حيث التداول، إذ أوشكت دوائر البحث أن تتركز على الموضوعات ذات الطبيعة التجريبية، بسبب ما رسخته الفلسفة الوضعانية من انفتاح عقلي على التجريب العلمي والمادي، وإغفالٍ بل ورد ما ظل يعرف بمعارف الماوراء.

من هنا أضحى الخوض في مضمار الروحيات خاصة، يستعصي على الطرح ويتعسر على التناول ما لم يكن المذكِّر -وما كلُّ واعظ مذكِّر- يتوفر على مواصفات عليا من الإيمان أولاً، ومن العلمية ثانيًا، ومن الروحانية ثالثًا.

روحانية الداعية

إن روحانية الداعية ليست ميزة معرفية، أو علمية، أو اعتبارية يتحصلها بملازمة الدرس، أو المرابطة أمام المشايخ السنوات الطويلة كي تتوج رحلته بالإجازة.. إنما روحانية الداعية أنوار باطنية تلحظها فيه العيون للوهلة الأولى، وفيوض فكرية تتذوقها الحواس بلا تردد، ومعروضات تفقيهية تتفتح عليها الأنفس بكثير من النهم، ومبتكرات تسديدية تتشربها الجوانح باستعذاب

من كانت روحانيته قد استوفت نصابها واستوت على سوقها، كان كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو حال، يجد سبيله إلى الناس بلا دعاية ولا استئذان.

كاستعذاب الظمأى حين يغاثون بالماء الزلال.

فمن كانت روحانيته قد استوفت نصابها واستوت على سوقها، كان كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو حال، يجد سبيله إلى الناس بلا دعاية ولا استئذان.

ذلك لأن ما يترجم عن تلك العلاقة بين الباث (الكامل)، والمتلقي (المهيأ)، هو علاقة المحبة وما يتفرع عن المحبة من عواطف الإكبار والتبجيل والامتنان.

سلطان الفكرة

ينحني المثقف الألمعي أمام الفكرة الصميمة، يلقطها في نص لم يلق صاحبه، أو لمفكر لم يعرف جنسيته. ومن ثم تتأسس الروابط والمذاهب والتيارات والفِرَق، على هذا النحو الذي يجعل إعظامَ الفكرةِ يتحول إلى مبايعة لصاحبها، وإلى عشق وافتدائية.

تاريخ الفِرَق في الاسلام -مثلاً- هو تاريخ لعلاقة الفكرة مع محتضنيها، والقيمة العقلية أو الروحية مع متعاطيها.

هناك طاقة من الأسْلَبة غير عادية ولا قِبَل للمُسْتَلَب بها، تَحْكم صلتَه بخطاب له من القوة ومن السيطرة على النفوس، ما يجعلها تتخلى عن كل ما تتغالاه، لقاء أن تظل على اصطفافها وراء الخطيب، تلتقط ما يُلقى في رحابه من نفائس، لا أروع ولا أبهر.

وحين يكون الداعية في محل الاجتباء والصديقية، تكون له تلك القوة، وذلك السلطان الذي يمتلك النفوس ويستولي على الأرواح.

بيداغوجية التشكيل

هناك سطوة نافذة للخطاب الدعوي مبعثها التواصل الروحي حين تَتمَحَّض له نورانيةٌ وفتحية ومقبوليةٌ، أو ما يمكن أن نسميه "بيداغوجية التعبئة والصهر والتشكيل".

hiragate.com

أهل الخير يتمرسون في الحياة بما لهم من قابليات تنبع من فطرتهم وإنسانيتهم، فهم يكدحون على الرزق والتوسعة، ويحدبون على الزوج والولد، ويُؤمّنون المستقبل ويضمنونه بما لهم من حكمة وتدبير.. لكن أرواحهم في كل ذلك تظل متعطشة إلى المدد، متطلعة إلى الإسناد، يشعرون -أينما كانوا- كأنهم في غير موقعهم وفي غير دورهم ووظيفتهم.

قد يكونون من أهل الطاعة، وقد يكونون من الغافلين أو من الملابسين للعصيان.. إنما الخير كامن في الأعماق، فسواء أكانوا من هؤلاء أم من أولئك، فإنهم جميعًا يعيشون متمرسين في الحياة بطبيعتهم، متطلعين إلى ما يملأ جوانحهم من توق إلى الرضى الذاتي، فلذا تراهم على شيء من التوتر المبهم الذي لا يعيرونه أهمية، فهم في تلك الحال مثل زهرة "طراد الشمس"، تتبع طيلة النهار قرصَ الشمس، وتميل معه حيث مال، كأن عامل المشابهة الشكلية واللونية يجعل ذلك الانجذاب الفطري، يقوى ويتحول إلى فعل.

كثير من فصائل الزرع هي على هذا الغرار، تسكنها الأشواق إلى النور، فتتعلق بمصادره، تزدهر بازدهاره في رابعة النهار، وتنكمش ويتلبسها الانطواء إذا أمست، وجَنَّها الليلُ.

وكذلك دأب أهل الحسنى.. إنهم يفتشون عن المرتكز الذي تسْترْفد منه نفوسُهم سكينتَها.. هناك شيء خارج نطاق المال والولد، وخارج دائرة المتعة والشهوة، يستهوي النفس الزكية، تنشده وتهيم بصورته، سواء اتضحت لها ملامح هذه الصورة، أم ظلت مجرد هالة من إشراق تسكن الأعماق كالحلم الجميل، من حيث تظل النسائم القلبية تنعش الروح وتُحلّق بالوجدان.

أهل الزكاوة لهم توق إلى الكمال، لا يفتأون يجسدونه في أحوالهم وأفعالهم، يؤدونه كالنوافل، ويغدقونه محبة على المحيط، كشجرة المسك تنشر أعباقها فيما حولها وتضيء الليل.

هناك تَفَتُّقٌ عن مكارم إنسانية لا يزال يتقوى ويتسع، يطبع ذوي النفوس النجيبة، فطرتُهم كالذهب الخالص، ينماز عن الرمل وهو مغمور فيه.

الكلمة الطيبة تستثير أرْيحيتهم، فيردون على القول بالفعل وبما تملك اليد.

لا زالت الكلمة هي الكوة، من حيث يتطلّع أهل الفلاح إلى الأفق وإلى المعارج.

إن البساطة في تسويق الخطاب، والسلاسة في الأداء والتبليغ، هي حِلْية الخطاب الناجح، شريطة ألا تكون البساطة جوفاء بلا مضمون يشد، ولا محتوى يجذب، ولا رسالة تستقطب.

من هنا تَفاوَتَ أهلُ الدعوة من حيث القدرة على التأثير والاستمالة، إذ موضوعات الوعظ واحدة عندهم جميعًا، إطارها العام "العبادات والأخلاقيات".

الفقه يحدد للعبادات مقوماتها الشرعية، ويرسم للمعاملات قواعدها العقدية، والأخلاق تحدد للسلوك مسطرته، وتضبط للتصرف ضوابطه وآدابه.

ولقد ظلت الأخلاق تستمد من السيرة النبوية وأخبار السلف الصالح قيمها وعِبَرها، فهي المورد الذي طفق أهل الدعوة يفاعلون به المستمعين، والاحتياط الذي لبثوا يحشدون بواسطته الأتباع ويستقطبون المريدين.

من السيرة الشريفة وأخبار الأخيار لبثوا ينشئون أفكارهم، ويرسمون مناهجهم، فهي النبع الذي يردونه بالمتلقين والمثابة التي يجيشون إليها الأشياع.

وتأتي الجدارة والنبوغ والتوفيقية، والمقبولية في تمييز خطاب داعية عن داعية آخر، ويأتي الفتح الإلهي والنورانية التي تتحقق للخاصة من عباده العاملين.. فمن ثم ترى التباين في اختيار المادة المنتخبة والموضوع المقدم، والتفاوت في طريقة العرض، والتمايز في ما يلقى على الأسماع، وما يطرح في المجالس والحلقات.

وإنك لتجد الموضوع نفسه يُلقى في قناتين على يد واعظين اثنين، فيشدك عرض هذا وينفرك عرض ذاك، بما للأول من بساطة في الأداء، وعمق في التحليل، ووجاهة في الإقناع، وما للثاني من سماجة في التوصيل، واجترارية وجعجعة بلا طحين. ■

(*) جامعة وهران / الجزائر.

hiragate.com

محمد محرم*

قدح من اللبن

عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول: "والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر فلم يفعل".

ضرب الجوع أطناب أبي هريرة ﷺ.. فخرج يبحث عمن يسكت له جوعه.. فوجد النبي ﷺ يدعوه إلى قدح من اللبن.. ومن هنا بدأت الحكاية. كان أبو هريرة ﷺ من فقراء الصحابة، مثله مثل أهل الصفة ﷺ.. وذات يوم خرج من بيته باحثًا عن صديق يرأف لحاله ويحن له..

وعندما رأى أبا بكر انفرجت أساريره وظن أنه وصل لمبتغاه، فعرَّض له عن جوعه بسؤاله عن آية من كتاب الله لعله يرى وهن حروفه وضعف كلماته من الجوع فيدعوه إلى طعام يفك به الحجر المربوط على بطنه.

أبو هريرة ﷺ كان فقيرًا ولكنه كان عفيفًا، ولقد كان بإمكانه أن يطلب مباشرة من أبي بكر ولكنه لم يفعل.. هذا دائمًا حال الفقراء المتعففين الذين أعوزتهم الظروف وضاقت بهم الدنيا، لا يعرفهم الناس بسبب حيائهم.. إنهم المساكين حقًّا.

وإن كان الذين لا يسألون الناس إلحافًا هم الأولى بالصدقات ونيل احترام الأغنياء والفقراء لعفة يديهم، خاصة مع كثرة الكاذبين والمدعين في سؤال الناس، والمتفننين في اختراع حاجات ومشكلات لاستخراج الأموال من المحسنين.. إنْ كان هؤلاء هم الأولى بالصدقات، إلا أن الرحمة بالسائلين الآن واجبة، فالأحوال صعبة والمعيشة صارت في جُلها ضنكًا على الكثيرين.

فإن كنت ترى فيمن يسألك أنه كاذب أو مدعٍ، فلا داعي أن تهينه بكلماتك اللاذعة أو نظراتك الحادة، سواء أعطيته أم منعته، فربما صادفت كلماتك قلبًا صادقًا متألمًا من ضيق يده فقطعت أوصاله وضاعفت آلامه النفسية، وأنت في غنى عن دعوة صادقة من قلب ملذوع بالفقر والحسرة.

ومن هنا يتضح أهمية التوجيه الرباني الجليل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾(البقرة:٢٦٤)؛ فلا خير في معروف مادي يتبعه أذى نفسي، فإن كنت معطيًا فأعطِ عن طيب خاطر مبتغيًا الأجر عند الله، وإن كنت مانعًا فامنع بلا تهكم أو أذى بكلمة أو نظرة، ولا تقلق إن كان من تعطيه لا يستحق، فأجرك عند الله تعالى.

خبرة المربي وفطنته

ثم قابل أبو هريرة النبي ﷺ.. وقبل أن يتفوه بكلمة، عرف النبي ﷺ حقيقة ما يريده أبو هرّ وما الذي أخرجه في هذه الساعة.. نظرة من المربي الحاذق في عين مريده، تكفيه ليعرف ما يريد وما يشغل باله.. فقد بنيت العلاقة بينهما على الود والصفاء والصدق، فصاروا يتعارفون بتعبيرات الأوجه ولحن القول.. كما عرف أبو هريرة من قسمات وجه النبي ﷺ أن رسالته قد وصلت.. وهذا سر عجيب من أسرار الحبيب المصطفى ﷺ وعلاقته بأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، علاقة فريدة وعميقة إلى أبعد الحدود.. إنه النموذج الأرقى للعلاقة بين المربي والمتربي، الذي نفتقده كثيرًا هذه الأيام.

قيل إن المدخل العاطفي والمحبة الأخوية، هي أفضل طريق للقرب من المتربي ومعرفة طباعه وصفاته النفسية والوقوف على خصائص شخصيته.. فعندما يثق الفرد في مربيه فإنه يصبح كتابًا مفتوحًا بين يديه.

فلمسة رقيقة لولدك مصحوبة بنظرة حب صادقة في عينيه، تقطع الكثير من المسافات بينكما وتشعرك بحلاوة الأبوة وجمالها.. ونظرة حانية منكِ في عين ابنتك، تذيب تلالاً من الثلج غطت علاقتكما لفترة من الزمان، وتعيد إليكما ذكريات الطفولة البريئة.. فلا تبخل على أبنائك بمشاعرك الصادقة وعواطفك الجياشة، فإنها التربة الخصبة التي تنبت فيها أزهار القيم.

وبعد أن ذهب النبي ﷺ بأبي هريرة ﷺ إلى منزله ليطعمه مما أفاء الله عليه، لم يجد في بيته إلا قدحًا من اللبن أهداه له أحد أصحابه.. تهللت أسارير أبي هريرة، حيث فاز بقدح مبارك من اللبن من بيت رسول الله ﷺ، فلن يشبع جوع بطنه فقط، وإنما سيكون طعامه مباركًا، فهو من يد المصطفى ﷺ.

ثم تسرب القلق إلى قلبه، فقد تذكر أن النبي ﷺ له عادة لا يقطعها مع ما يهدى إليه من طعام ونحوه؛ إنه يبعث بجزء منه إلى أهل الصفة وهم أشد أهل المدينة فقرًا عددهم سبعون أو أكثر، فيشركهم فيه قدر الإمكان.. ولم يدم قلقه طويلاً، فقد ابتسم له النبي ﷺ ثم طلب منه أن يذهب ليحضر أهل الصفة ليتشاركوا جميعًا في قدح اللبن.. لقد تحول القلق إلى واقع في نفس أبي هريرة ﷺ، بعد أن كان سيشرب من قدح اللبن وحده الآن سيتشاركه سبعون رجلاً وامرأة.

ولكن يستدرك أبو هريرة نفسه ويطمئنها أن النبي ﷺ لن يضيعه، ويتذكر أن طاعة الله ورسوله في المنشط

hiragate.com

hiragate.com

والمكره واجبة.. فكيف يخالف أمر حبيبه ومربيه الذي استشعر حاجته دون أن يبوح بها، وربت بيديه الحانيتين على ألمه.

إن طاعة الله ورسوله في نفس المؤمن ليست متعلقة فقط بطلب الثواب والخوف من العقاب، وإنما منبتها الأصلي هو اعتقاد المسلم أن تقدير الله وسوله له خير من تقديره لنفسه، وأمرهما لن يكون أبدًا ضررًا له في عاجل الحال أو مآله. فإن كان المؤمن واثقًا في حكم الله وتقديره له، متيقنًا من علم الله ﷻ بحاله وما يصلحه ويفسده، يمتلئ قلبه بحب الله ﷻ؛ لم تتردد جوارحه عن تنفيذ أمر صريح صحيح من أوامر الله وسوله ﷺ..

إن هذا المزيج العجيب من الثقة والعلم والمحبة، الذي يتبعه صدق الاتباع، يورث العبد رضا بقضاء ربه، ويعطي لصبره على مشاق الحياة لذة وأنسًا لا يستشعره إلا من ذاقه وعرفه.

بين الأخذ بالأسباب وطلب البركة

يقول أبو هريرة: فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأَذِن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت..

الآن أهل الصفة في بيت الرسول ﷺ في انتظار عطيته التي وعدهم بها أبو هريرة حين دعاهم إلى المنزل.. يقترب أبو هريرة من النبي ﷺ، فيعطيه المصطفى ﷺ قدح اللبن ويطلب منه أن يمر على أهل الصفة فردًا فردًا ليشربوا ويرتووا.

بدأ أبو هريرة ﷺ يمرّ على أهل الصفة يعطيهم القدح فيشرب أحدهم حتى يروي ظمأه، ثم يرده على أبي هريرة مرة أخرى ليعطيه لمن بجواره، وهكذا حتى ارتوى القوم كلهم.

إن هذا القدح الذي باركه النبي ﷺ لم يكن ليكفي فردين على الأكثر بما يحويه من لبن، ولكنها بركة رزقٍ استجلب ببركة طاعةٍ متحققةٍ بصدق المحبة والمعرفة بالخالق ﷻ مسبب الأسباب.

والحديث عن البركة في حياة المسلم، لا يعد ضربًا من الدروشة واللجوء إلى الغيبيات هربًا من الواقع، أو عجزًا عن الأخذ بالأسباب، وإنما هو حديث لا يفهمه

إن الأمة الآن بحاجة ملحة إلى خطاب الأخذ بالأسباب، لتلحق بركب التقدم الذي تخلفت عنه كثيرًا.. بحاجة إلى كلمات ملهبة تحث الناس على العمل، إن أرادت رفعة لأوطانها في هذه الدنيا.

إلا من ذاق وعرف وشاهد في سكك الحياة ما يؤكد له محورية هذا المفهوم في الشريعة، ولِمَ لا وقد كان من دعاء النبي ﷺ: "..وبارك لي فيما أعطيت".

فالبركة تدور معانيها حول النماء والزيادة، سواء في الأشياء المادية بأن تكون الزيادة محسوسة، أو في الأشياء المعنوية بأن تكون أنفع وأفيد من غيرها؛ فالعمر فيه بركة، والكلمات فيها بركة، والرزق فيه بركة، والزوجة والأولاد فيهم بركة.

إن إيمان المسلم بوجود البركة في حياته، لهو رسالة دائمة إلى نفسه المرهقة وقلبه الممتلئ بالهموم؛ أنْ اهدأ قليلاً ولا تتعلق بالأسباب تعلقًا كليًا ينسيك خالق الأسباب ومسبباتها.. فيرتاح القلب بعد عناء الأخذ بالأسباب، وتقر العين بنتائج تفوق التوقعات ولا تساوي سعيك، وإنما تزيد عليه أضعافًا كثيرة، والله يضاعف لمن يشاء.. ولهذا قال ﷺ: "البركة من الله".

الله ﷻ هو الذي أمرنا بالأخذ بالأسباب في عدة مواضع من كتابه الكريم، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(التوبة:١٢٠)، فمن أحسن في عمله، فإن الله يعطيه أجره في الدنيا أو في الآخرة حسبما شاء، وقال في حق ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(الكهف:٨٤-٨٥)، فقد أعطاه الله تعالى من الأسباب الكثير، فأخذ ذو القرنين بتلك الأسباب، وهي صفة مدح في سياق الآيات التي يخبرنا فيها الحق سبحانه عن قصة ذي القرنين.

وحين اختصم المسلمون واليهود في أحقية دخول الجنة، قال ﷺ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(النساء:١٢٣)، فكانت رسالة واضحة للمسلمين، ألا

hiragate.com

تعتمدوا على كونكم مسلمين فقط، وإنما عليكم العمل بجدّ واجتهاد، لتحقيق رسالة الاستخلاف والعمران في هذه الأرض. وما تخلف المسلمون كثيرًا في العصور الحديثة، إلا بضياع مفهوم الأخذ بالأسباب، واعتماد الكثيرين على مخلص عبقري أو معجزة ربانية يهلك الله فيها الباطل وأهله، وينصر فيها الحق وأهله.

وفي مقابل التأصيل العميق لمفهوم الأخذ بالأسباب في الإسلام، يأتي مفهوم البركة ليضيف لمسات باردة على قلوب البشر المرهقة، وحتى لا يتحول الإنسان إلى آلة وظيفتها العمل لتحقيق الأسباب فقط، وينسى في غمار ذلك حقيقة كونه عبدًا في ملك الله الفسيح، سائر بسنن الله التي وضعها في الكون، وهو قادر على إبطالها أو تعطيلها لمن شاء كيفما شاء في أي وقت شاء. وهذه من حقائق التسليم بالله ﷻ والرضا به سبحانه ربًّا.

إن الأمة الآن بحاجة ملحة إلى خطاب الأخذ بالأسباب، لتلحق بركب التقدم الذي تخلفت عنه كثيرًا.. بحاجة إلى خطاب ينسينا التواكل والاعتمادية على الأبطال المخلصين أو المعجزات الكونية.. بحاجة إلى كلمات ملهبة تحث الناس على العمل ثم العمل ثم العمل، إن أردنا رفعة لأوطاننا في هذه الدنيا.

وهي في ذات الوقت بحاجة من حين لآخر، إلى لمسات من خطاب البركة المفعم باليقين فيما عند الله، والذي يربط المسلم بربه في كل وقت وحين.. وهذا المزيج في الخطاب بين الأخذ بالأسباب وطلب البركة، مزيج مركب ومعقد، ولا يستطيع الكثيرون الآن إنتاجه للأسف، ومن أوتي القدرة على صياغة هذا الخطاب فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

لمسة حانية

يقول أبو هريرة: فأخذ ﷺ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسم فقال:

"أبا هِرّ"

قلت: لبيك يا رسول الله

قال: "بقيت أنا وأنت"

قلت: صدقت يا رسول الله

قال: "اقعد فاشرب"

فقعدت فشربت..

فقال: "اشرب"

فشربت فما زال يقول "اشرب"، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا.

قال: "فأرني"..

فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة.

وفي المشهد الأخير من قصتنا، يقف أبو هريرة أمام النبي ﷺ بعد أن شرب القوم كلهم حتى ارتوى من اللبن، وارتوت نفس أبي هريرة بالرضا والسعادة.

ويأبى النبي ﷺ إلا أن يعطينا درسًا رائعًا في التربية بالقدوة؛ فلم يشرب النبي أولاً، وإنما دفع بالقدح إلى أبي هريرة ليشرب أولاً.

رسالة واضحة لأبي هريرة، أن الجزاء من جنس العمل، فكما آثرتَ أهل الصفة على نفسك طاعة لرسول الله فبدأتهم بالشرب، فها هو النبي ﷺ يؤثرك على نفسه ويترك لك القدح لتشرب منه ما شئت.

ويشرب أبو هريرة ﷺ من اللبن، ويشرب ويشرب حتى لا يجد له مسلكًا كما عبر ﷺ.. ومع آخر مَذْقَة لبن ترتوي بها بطن أبو هريرة كان قلبه يرتوي بما تعلمه اليوم من حبيبه ﷺ.

وكأني أرى أبا هريرة ﷺ والابتسامة تعلو وجهه، يمد يده بالقدح إلى معلمه ومربيه وفي عينيه ألف رسالة ورسالة إلى نفسه الشريفة صلوات ربي وسلامه عليه..

رسالة امتنان أنْ فَهِم احتياجاته أولاً دون الحاجة إلى سؤال يستشعر منه نقصًا، ورسالة حب وتقدير أنْ قدَّم له يد المساعدة وأخذه إلى بيته على الرغم من ضيق وقته ﷺ وكثرة مشاغله.

ورسالة شكر أنْ أتاح له فرصة التعلم والاستفادة من قدح اللبن الصغير هذا دروسًا في الحياة؛ فقد تعلم دروسًا في التربية والأخوة الإيمانية والبركة والإيثار وغيرها. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

زينة الفم

تعد الأسنان أحد أهم أجزاء الجسم المستخدمة لتقطيع الطعام، ولإعطاء الشكل الجميل للوجه، والمساهمة في نطق بعض الحروف والكلمات بشكل صحيح.. والأسنان عبارة عن أعضاء مكونة من عظام صلبة، تتمركز في الفكين العلوي والسفلي من الفم، ويكون السن إمّا دائمًا أو مؤقتًا، ويبلغ عدد الأسنان الدائمة منها لدى الإنسان البالغ، ٣٢ سنًّا.

أجزاء السن

السن عبارة عن ثلاثة أجزاء رئيسية: التاج، والجذر، والعنق. ومن الناحية النسيجية يتألف السن من ثلاث طبقات أساسية هي:

١- التاج: وهو مكوَّن من ثلاث طبقات، وهي طبقة اللب الداخلية، وطبقة العاج وهي أكثر جزء حساس في السن يميل لونه إلى الأصفر، وطبقة المينا الخارجية وهي جزء غير حساس لونه أبيض.

٢- منطقة الجذر: وهي مكوَّنة من ثلاث طبقات: اللب، والعاج، والملاط. وهي طبقة ناعمة تغطي منطقة الجذر وعنق السن، وتساهم في

إن أكثر ما يحير العلماء هو صناعة طبقة المينا، إنها مصنوعة من مادة غاية في الصلابة، لكنها تنمو بشكل بطيء ومن ثم تأخذ شكلها النهائي بمنتهى الإتقان.

الحفاظ على ثبات السن في مكانه.

٣– العنق: وهي المنطقة الفاصلة بين التاج والجذر.

٤– نسيج اللثة: وهي تلك المنطقة اللحمية الصلبة المحيطة بالأسنان، والتي تشكّل دعامة لها.

ويتم تغذية السن، من خلال أوعية دموية تتخلل اللب، إلى جانب وجود الأعصاب التي تربط الأسنان بمراكز الحس في الدماغ، لكي تحس بمقدار الضغط الواقع عليها، وبدرجة حرارة الطعام والشراب.

٥– طبقة المينا: وهي أقوى مكونات السن، ويقصد بها تلك الطبقة الصلبة والخارجية من السن، والتي تغطي العاج فوق اللثة. وهي مادة بلورية تتكون من الكالسيوم والفسفور وآثار من بعض المعادن. وللتدليل على صلابة المينا وخصائصها الأخرى، نذكر أن المواد الصناعية التي تستخدم بديلاً عنها في حالة تلَفِها كالبورسلين والفضة والذهب وخليط الزئبق مع بعض المعادن (الملغم)، لا تضاهيها من حيث الصلابة، وكذلك مقاومتها لتأثير مكونات الطعام والشراب واللعاب.

إن أكثر ما يحير العلماء هو صناعة طبقة المينا؛ إنها مصنوعة من مادة غاية في الصلابة، لكنها تنمو بشكل بطيء، ومن ثم تأخذ شكلها النهائي بمنتهى الإتقان.

٦– طبقة العاج: ويقصد بها النسيج الداخلي الأصفر من السن، وهي تشكّل الجزء الرئيسي الأكثر حساسية في تكوين السن. وهي مادة عظمية وبصلابة بقية عظام الجسم، ولكنها أقل صلابة من المينا، حيث تعمل على امتصاص الإجهاد العالي الواقع على المينا مما يحول دون انكسارها.

الإعجاز في خلق الأسنان

١– لحكمة بالغة، جعل الله تعالى الفك العلوي ثابتًا، وجعل الفك السفلي متحركًا. فالفك السفلي مزود بثلاثة أزواج من العضلات تحركه نحو اليمين، وثلاثة أزواج تحركه نحو الشمال، وثلاثة أزواج من العضلات تحركه نحو الأعلى، وثلاثة أزواج من العضلات تحركه نحو الأسفل، وأربع عضلات تحركه نحو الأمام والخلف.

٢– إن الأسنان لا تحتاج إلى قوالب لتصنيعها كما يفعل البشر، بل إن كل سن يبدأ تصنيعه من خلية واحدة فقط، كما هو الحال مع كامل جسم الإنسان. وعلى عكس بقية أعضاء جسم الإنسان والتي يكتمل تخليقها والإنسان في بطن أمه، فإن الأسنان تتخلق بعد ميلاده، حيث يبدأ تخلّق الأسنان اللبنية في نهاية عامه الأول، والأسنان الدائمة بعد عامه السادس، ويكتمل خلقها مع سن البلوغ فتتوقف تمامًا عن النمو. لقد تم توزيع الخلايا

التي يبدأ منها تخليق الأسنان على محيط الفكين، بشكل بالغ الدقة، حيث يأخذ كل سن مكانه الصحيح دون أن يتصادم مع بقية الأسنان.

ولقد حدد الخالق ﷻ على الشريط الوراثي في داخل هذه الخلايا، البرامج التي تنتج عند تنفيذها الأسنان بأشكالها المطلوبة ابتداء من خلية واحدة. فبعض الخلايا تصنع القواطع، وبعضها الأنياب، وبعضها النواجذ والأضراس، وقلما تخطئ هذه الخلايا فتنبت الأنياب أو القواطع في أماكن الأضراس.

والأعجب من ذلك، أن كل إنسان له شكل أسنان تختلف عن الآخر، ولكن برامج التصنيع لجميع أسنانه قد تم إحكامها، بحيث تنتج أسنانًا متناسقة مع بعضها البعض. ويمكن لمن عنده خلفية في تصميم القطع الميكانيكية باستخدام الحاسوب، أن يدرك مدى التعقيد الموجود في برامج تصنيع الأسنان المكتوبة على الشريط الوراثي.. فهذه البرامج يجب أن تحتوي على كامل أبعاد السن، ليس الخارجية فحسب بل أبعاد كل طبقة من طبقاتها، إلى جانب مواصفات المواد المستخدمة لبناء هذه الطبقات.

وكما ذكرنا آنفًا أن عملية تصنيع السن تبدأ من خلية واحدة؛ فهذه الخلية تنقسم ملايين المرات، بحيث توضع كل خلية في مكانها الصحيح في جسم السن، وبحيث يكون نوع الخلية مناسبًا للمكان الذي هي فيه. كما أن الأسنان المصنعة بهذه الطريقة العجيبة، تأخذ شكلها النهائي المطلوب ولكن بحجم صغير، ومع نموها يزداد حجمها بنفس النسبة مع احتفاظها بشكلها الأصلي.. وهذا أيضًا يتطلب درجة عالية من التنسيق بين الخلايا عند انقسامها في المواقع المختلفة، بحيث ينقسم كل منها بقدر محدد يتناسب مع نسبة النمو في ذلك الموقع.

٣- بما أن الإنسان هو الوحيد بين الكائنات الحية

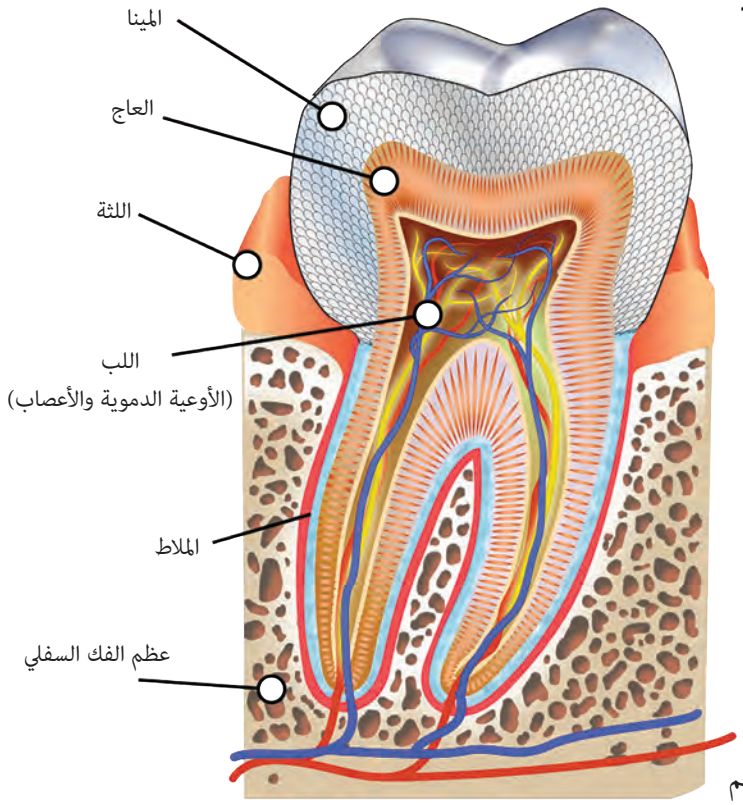

أجزاء السن

الذي يتميز بتعدد أنواع طعامه، فإن أسنانه تتطلب تصميمًا خاصًّا، فيحتاج أشكالاً مختلفة من الأسنان، بعضها للقطع، وأخرى للتمزيق والتكسير والطحن.. فأسنان القواطع يجب أن تكون مستطيلة وحادة الأطراف لكي تتمكن من تقطيع الطعام، أما الأنياب فيجب أن تكون أطرافها مدببة وبارزة عن ما يجاورها من أسنان لكي تتمكن من تمزيق الطعام الذي يصعب قطعه، أما النواجذ والأضراس فيجب أن تكون أطرافها مستعرضة ومقعرة بعض الشيء لكي تتمكن من تكسير وطحن الطعام.

ومن عجائب تصميم أشكال الأسنان، أن القواطع الأمامية العلوية أعرض من السفلية، مما يؤدي إلى حدوث إزاحة بين كل سن على الفك العلوي عن السن الذي يناظره في الفلك السفلي، وهذا ضروري لكي تستقر الرؤوس البارزة للأنياب فيما بين الأسنان، وإلا لما انطبقت أسنان الفكين على بعضها.

٤- ويجدر أيضًا الوقوف على اختيار المادة التي

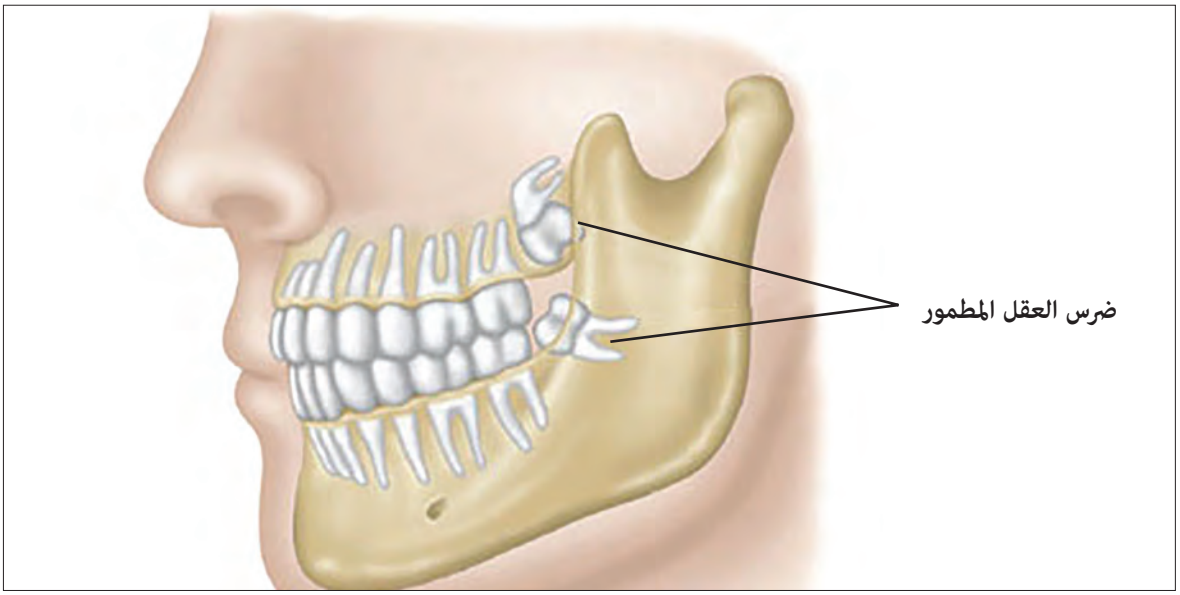

تصنع منها الأسنان، إذ لا تتآكل هذه المادة أو تتكسر لفترة تمتد على مدى عمر الكائن، وخاصة أنها تستخدم في كل يوم. فالإنسان -على سبيل المثال- يستخدم أسنانه لقطع وتمزيق وطحن الطعام لمدة ساعة كل يوم، تتعرض الأسنان خلالها إلى مختلف أشكال الضغوط الميكانيكية، وإلى جانب ذلك تتعرض لمختلف أنواع المواد الكيميائية التي يحتويها الطعام وما يفرزه الفم من مواد هاضمة بسيطة، ناهيك عن التفاوت في درجة حرارة الطعام والشراب، الذي يعمل على تمدد وتقلص مادة الأسنان. بل إن الأخطر من كل ذلك على الأسنان، هو تكاثر البكتيريا على أسطح هذه الأسنان خاصة بوجود بقايا الطعام، حيث تقوم البكتيريا بإفراز مختلف المواد السامة والأحماض التي تعمل على تخريب الأسنان.

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن هذه الأسنان تستمر في أداء وظيفتها لما يقرب من مائة عام إذا ما اتخذت بعض الإجراءات البسيطة للحفاظ عليها بعد كل استعمال لها.

ضرس العقل

إن ضرس العقل هو الضرس الذي يتكون بوقت متأخر عن الوقت الطبيعي لنمو الأسنان، حيث إنه ينمو مع بداية دخول الإنسان في مرحلة البلوغ، أي في الفترة الواقعة بين عمر الخامسة عشر، حتى عمر الخامسة والعشرين، وسمّي بضرس العقل نسبة إلى هذه المرحلة العمرية. ويذكر أن ضرس العقل يكون في كثير من الأحيان مطمورًا تحت اللثة، وفي أحيان أخرى لا ينمو ولا يتكون، وخاصة لدى الأشخاص ذوي الفك الصغير.

فوائد ضرس العقل

يعتقد الكثير من الناس، أن ضرس العقل هو ضرس زائد ليس له أي وظيفة أو أهمية، وهذا غير صحيح، فأضراس العقل عندما تنمو بشكل سليم وغير أفقي أو مائل، فإنها تعود على الإنسان بمجموعة من الفوائد. وقد حذرت دراسة طبية بريطانية حديثة من خلع ضرس العقل السليم الخالي من التسوس والمشاكل، لأن خلعه قد يؤدي إلى مضاعفات جانبية كبيرة، تؤثر على صحة الأسنان لدى المريض.

ومن فوائد ضرس العقل المساعدة في المضغ، كما أنه أحد دعائم الأسنان الاصطناعية؛ فعندما يواجه الإنسان أضرارًا كبيرة في أسنانه، ويضطر لخلعها وإبدالها بأسنان اصطناعية، فإن ضرس العقل السليم والمتكون بطريقة طبيعية، يعتبر من أهم الركائز التي يمكن أن يعتمد عليها الأطباء أثناء التركيب. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

محمد جمال المغربي*

القيمة المنسية

من المعروف أن الإحسان هو شرط من شروط صحة الإيمان والإسلام معًا، لأن التلفظ بالشهادتين والقيام بالعبادات المفروضة من غير إخلاص يبقي الإيمان ناقصًا، ولكي يكتمل هذا الإيمان لا بد أن يكون المسلم محسنًا، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(النحل:١٢٨).

للإحسان درجات وأنواع، ومن إحسان المسلم إلى

مسلم "جبر الخواطر"، والجبر معناه "إصلاح الكسر"، فما يجبر إلا كسير، فيقال "جبر الفقير" و"جبر اليتيم"، ومعناه كفاه حاجته وأصلح حاله وأحسن إليه، ويقال "جبر بخاطره"؛ أي أجاب طلبه عزاه وواساه في مصيبة حلت به وأزال انكساره وأرضاه. وجبر الخواطر عادة ما يكون لأمور معنوية تكشف عن معاناة، تسبب بها قريب أو بعيد أو حتى حبيب. وقد يكون جبر الخواطر في كلمة، وقد يكون في حصول مبتغى أو مواساة، أو تخفيف لمعاناة، أو لمسة عطف وحنان على شعر يتيم -مثلاً- أو دعوة صادقة من القلب.

جبر الخواطر ثقافة مجتمعية كانت متداولة منذ القدم، كان الناس يستعملونها بالفطرة الإنسانية.. فما أجمل من أن تجد مَن يحس بإنسان، بل يترجم هذا الإحساس إلى كلمة طيبة تطيّب خاطره وتجبره برفع الظلم عنه، وتمد يد العون لمساعدته.. كل هذه الأفعال تعتبر مثالية ذات إحساس مرهف وأخلاق حميدة تنبع من إنسانيته. لكن أصبحت هذه الثقافة مجهولة الآن لكثير من الناس، حيث أنساهم لهو الحياة الدنيا عادات وأعرافًا كانت موجودة.

فالعلاقة الزوجية -مثلاً- حين يحدث فيها خلاف، لا يسارع بعض الأزواج إلى تطييب وجبر خواطر أزواجهم، فيمنعهم كبرياؤهم من تقديم الاعتذار، وهذه ثقافة خاطئة تربينا عليها، أو جهلنا بثقافة فطرنا عليها، ونسينا أننا بكلمة طيبة بسيطة نطفئ نار الكراهية، ونرقق القلوب المتحجرة. فلا بد من استرجاع ثقافة جبر الخواطر ومحو أمية من يجهلها، وجبر خواطر الزوجة والأهل والصغير والكبير.. وعدم التخلي عن مكسور الخاطر أو الاستفراد به، واستغلال ضعفه أو فقره، بل وتقديم المساعدة له حتى ولو بالحيلة لتجنب إيذاء وجرح مشاعره.

ومن المأثور من جبر الخواطر أن سيدة كانت تزور امرأة فقيرة لكنها متعففة، فلجأت السيدة الغنية للحيلة كي تعطي هذه المرأة ما تحتاجه من مواد تموينية، فادعت أنه يأتيها كل شهر مواد تموينية كثيرة من أهل الخير يفيض عن حاجتها، فعرضت عليها قسمة ما يأتيها كل شهر بينهما، كي لا تفسد هذه السلع. أي أن السيدة الغنية ادعت الفقر كي تستطيع مساعدة المرأة الفقيرة المتعففة، وحين سألها ابنها: لِمَ فعلت هذا يا أمي؟ وقد كان بإمكانك مساعدتها بدون وصمك بالفقر، وقالت: جبر الخواطر على الله يا ولدي. في هذه القصة القصيرة يجتمع جبر الخاطر مع الصدقة، لذا قيل"جبر الخواطر صدقة".

عندما ننتقل إلى قيم الإسلام، نجد أن جبر الخواطر يصنف كعبادة جليلة دعا إليها الإسلام قرآنًا وسنة. ونادى السلف الصالح بالتمسك بها والحفاظ عليها، لأنها تنحدر من جينات الأخلاق الحميدة، وهو أدب رفيع لا يتحلى به إلا أصحاب القلوب النبيلة والأخلاق الراقية.

جبر الخواطر في القرآن الكريم

لقد جعل الإسلام للمطلقة متاعًا، فإذا لم يفرض لها مهر كان المتاع واجبًا على المطلِّق، وإذا كان لها مهر أخذته وأخذت معه ما تتمتع به من ثياب أو حليّ، وعلة ذلك أن قلبها قد أصابه تصدع من جراء هذا الطلاق، فجعل الإسلام متاعها جبرًا لخاطرها وبرءًا لجروحها، يقول تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾(البقرة:٢٣٦)، ويقول أيضًا: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾(الأحزاب:٢٨).

كذلك جعل الإسلام "الدية" جبرًا لخواطر أهل من قُتل خطأ لتطيب نفوسهم ويسكن ثأرهم. يقول "ابن قدامة" رحمه الله: ومن توجيهات الله ﷻ للنبي ﷺ قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(الضحى:٩-١٠)؛ فكما كنت يتيمًا يا محمد فآواك الله، فلا تقهر وتذل هذا اليتيم، بل طيب خاطره وأحسن إليه وتلطف به وعامله معاملة حسنة. كذلك نهى الله ﷻ عن نهر السائل وتقريعه، بل أمر بالتلطف معه وتطييب خاطره حتى لا يجمع بين ذلّين؛ النَهر والسؤال.

جبر الخواطر في السنة النبوية

ذكرت العديد من الروايات والأحاديث جبر الخواطر

hiragate.com

حين ينكسر القلب من جراء مصيبة أو بلاء ينزل بصاحبه؛ فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: "يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟" قلت: يا رسول الله، استشهد أبي، قتل يوم أُحد وترك عيالاً ودينًا، قال ﷺ: "أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟" قال: قلت بلى يا رسول الله، قال: "ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا فقال: يا عبدي تمن عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب ﷻ:إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون" (رواه الترمذي).

وفي رواية أخرى كان عليه الصلاة والسلام يطيّب خواطر هؤلاء الذين أثقل كاهلهم "الدَّين"، ولا يجدون ما يواجهون به مهمات الحياة ووظائفها؛ دخل ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له "أبو أمامة"، فقال ﷺ:"يا أبا أمامة، مالي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟" قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، قال:"أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله ﷻ همك وقضى عنك دينك؟" قلت: بلى يا رسول الله، قال:"قل إذا أصبحت وإذا أمسيت، اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال"، قال أبو أمامة: ففعلت ذلك، فأذهب الله ﷻ همي وقضى عني ديني. (رواه أبو داود)

جبر الخواطر عند الصحابة والتابعين

أراد حسان بن سعيد المخزومي أن يبني جامعًا، فأتته امرأة بثوب لتبيعه وتنفق ثمنه في بناء ذلك الجامع، وكان الثوب لا يساوي أكثر من نصف دينار، فطيب خاطرها واشتراه منها بألف دينار وخبأ الثوب كفنًا له. وكان القعقاع بن ثور إذا قصده رجل وجالسه، جعل له نصيبًا من ماله، وأعانه على عدوه، وشفع له في حاجته، وغدا إليه بعد المجالسة شاكرًا.

من بين صفات الله ﷻ صفة " الجبّار"، ولها ثلاث معان من بينها "الجبر"، ويفسر العلماء معنى "الجبّار" على أنه الذي يجير الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير ويغني الفقير وييسر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر. وإذا دعا الداعي فقال "اللهم اجبرني"، فإنه يريد هذا الجبر الذي حقيقتُه إصلاح العبد، ودفع جميع المكاره عنه.

جبر الخواطر فنٌّ

جبر الخواطر عبادة جليلة لا بد عند ممارستها من مراعاة بعض الضوابط؛ فلا بد من محو الكبر والأنانية والمصلحة من سجلات عقولنا وقلوبنا. فالإنسان الأناني لا يجبر سوى غروره لأنه لا يرى سوى نفسه، والإنسان الذي لا تعنيه سوى مصلحته، يجبر الخاطر على قدر المصلحة التي تعود عليه. كذلك يتطلب جبر الخواطر منّا، أن نحس بمشاعر الآخرين لكي نستطيع أن نسترضيهم، وأن يخرج من القلب إلى القلب على عكس المجاملات التي تخرج من اللسان. ويكون جبر الخواطر بابتسامة، أو نظرة حانية، أو لمسة حنان، أو كلمة طيبة تدعم المجبور وتقويه، فهو رحمة وحنان للصغير، وتوقير للكبير واهتمام به.

لا بد من تعريف الناس بهذه الثقافة التي أصبحنا نجهلها، وتشجيعهم على ممارستها، وتذكيرهم بأن جبر الخواطر عبادة جميلة دعا إليها ديننا الحنيف بل وطبقها، وألا نهجر تلك العبادة التي قد تكون من أسباب دخولنا الجنة في الآخرة، ناهيك عن راحة البال والسكينة، وكف الأذى في الدنيا. فقد قيل: "من صار في الناس جابرًا للخواطر، أدركته العناية ولو كان في جوف المخاطر". ■

(*) كاتب وصحفي مصري.

جبر الخواطر قيمة جليلة دعا إليها الإسلام قرآنًا وسنة، وحث على التمسك بها والحفاظ عليها، لأنها تنحدر من جينات الأخلاق الحميدة، وهي أدب رفيع يتحلى به أصحاب القلوب النبيلة والأخلاق الراقية.

hiragate.com

خلف أحمد أبو زيد*

نساء المسلمين
في صناعة الحضارة

لقد تعددت أدوار المرأة في مدرسة النبوة، وكان العلم الوسيلة المعبرة عن فكرها الناضج، والذي أتاحه الإسلام لها بديمقراطيته وحريته وعدالته، وفتح الطريق أمامها فتعلمت وعلّمت واتسعت ثقافتها الدينية والعلمية والفكرية، وتزودت بالخُلق النبيل والسلوك الحسن الذي استمدت دعائمه من خلال الإيمان بالله وبرسالة خاتم الأنبياء.

كان لقيام الحضارة الإسلامية دور فعال في اتساع رقعة مهام المرأة ونجاحها في مجال التعلم والتعليم، حيث أسهمت في إثراء الحضارة الإسلامية بعطائها المتواصل وبجهدها الناضج الذي أنتج أجيالاً صلبة تدرك رسالتها الخالدة. وإذا تتبعنا دور المرأة عبر مسيرة الحضارة الإسلامية، نجده سجلاً حافلاً بالإنجازات التي وصلت فيها المرأة المسلمة إلى أسمى درجات العلم

والأدب والثقافة، ونالت أكبر قسط من التربية والتعليم. فكان من النساء المسلمات الفقيهة والمحدثة والأديبة والناقدة والطبيبة والاقتصادية.

العلوم الدينية

إذا ما طرقنا أبواب العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها من علوم الشريعة، تطالعنا كوكبة من النساء بدايةً من عصر النبوة، مثل السيدة عائشة ﵂ التي كانت عالمة بالفقة والطب والشعر، وأيضًا السيدة أسماء بنت أبي بكر، وأم عطية الأنصارية، وأم سليم، وأم الدرداء، وفاطمة بنت قيس ﵃، كن جميعهن من راويات الحديث.

وإذا ما رجعنا إلى طبقات النساء المحدّثات في مسند الإمام أحمد، وجدنا أنه يضم وحده خمسين تابعية نذكر منهن -على سبيل المثال لا الحصر- حفصة بنت سيرين، وزينب بنت المهاجر، وصفية بنت شيبة. وكذلك الأمر في الأندلس أيام الخلافة الأموية، حيث كان فيها نحو ستين عالمة في الفقه، من أبرزهن فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي صاحب كتاب "تحفة الفقهاء"، التي تفقهت على يد أبيها وحفظت تحفته، وتزوجها علاء الدين بن أبي بكر صاحب كتاب "البدائع"، وعندما كان زوجها يخطئ في مسألة، ترده إلى الصواب. ومن أهم ما يميز هؤلاء الفقيهات في العصر الأندلسي، إيقاد السرج على بيوتهن دلالة على أنهن أهل الفتوى والفقه.

وفي عصر الموحدين برز ذكر السيدة زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن الأميرة الموحدية، إذ برعت في علوم الدين واللغة والأصول. كما ذاع صيت الحافظة أم العز العنبرية العالمة بالحديث وبالقراءات السبع للقرآن الكريم. ولم تتوقف إسهامات المرأة في مجال العلوم الدينية عند ذلك، بل نجد أنها كانت تدرس للرجال هذه العلوم، وتلقي الدروس في المساجد الجامعة، ومن أشهرهن في ذلك؛ السيدة نفيسة بنت أبي محمد بن حسن، التي سمع وأخذ عنها الإمام الشافعي علمَ الحديث، وأعجب بعلمها ونبوغها.. وكريمة المروزية، وسيدة الوزراء، وكانتا من أهم راويات الأحاديث التي

إن كتب التاريخ والتراجم حافلة بالموضوعات والأخبار عن شخصيات نسائية كان لهن الدور والشهرة في مجالات التثقيف الديني والأدبي والعلمي والطبي، الأمر الذي يوجب على المرأة المسلمة في هذا العصر أن تعمل على أن تكون أمتدادًا لهن.

جمعها البخاري. وقد ذكر الحافظ بن عساكر وهو أحد رواة الحديث، أن عدد شيوخه وأساتذته من النساء كن بضعًا وثمانين أستاذة.

وهناك أيضًا السيدة زينب بنت الشعري التي سمعت عن الكثيرين، وأجاز لها الحافظ أبو الحسن الفارسي، والزمخشري صاحب كتاب "الكشاف" وغيرهما، وكان من بين تلاميذها ابن خلكان.. وهناك الشيخة شهدة التي لقبت بـ"فخر النساء"، واستمع عليها خلق كثير، وكان من تلاميذها الإمام ابن تيمية الحراني الذي سمع منها الحديث، والإمام الجوزي الذي روى عنها كثيرًا من الآثار.. وفاطمة بنت جمال الدين سليمان الأنصاري وكانت عالمة محدثة، وقد أخذ عنها الصفدي والإمام الخطيب، والإمام الخطيب قرأ صحيح البخارى على يد كريمة بنت أحمد المروزي.. وأيضًا زينب بنت أحمد بن عمرو بن أبي تمكر المقدسية، والتي كانت محدثة ذات دين وصلاح وعلم في الحديث. وزينب بنت مجد بن عمر بن عبد الرحمن الدمشقية، التي قرأ عليها بعض المحدثين للإجازة، وأجازت ابن حجر، وأبا الفتح العثماني..

والإمام جلال الدين السيوطي يقول عن نفسه إنه قرأ على سيدات من العالمات المتخصصات في الدراسة الدينية، كما جاء في كتابه "بغية الدعاة"، وذكر منهن أم هانئ بنت الحسن الهويني، وهاجر بنت محمد، وأم الفضل المقدسية، ونشوان بنت عبد الله، وكمالية بنت أبي بكر، وأمة الخالق بنت العقبى، وغيرهن.. وكذلك الإمام السخاوي الذي أشار في كتابه "الضوء اللامع"، و"النوادي في تهذيب الأسماء"، والخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد"، حيث خصوا السيدات العالمات والنساء

اللاتي لهن ثقافة عالية بأجزاء كبيرة في كتبهم.

العلوم الأدبية

لقد تبوأت المرأة دورها الطليعي في مجال العلم والثقافة والفكر والأدب، منذ العصور الأولى من عمر الحضارة الإسلامية، حيث كان بعض الفضليات من النساء المسلمات، يعقدن مجالس العلم والأدب والمناظرة والمساجلة، ويحكمن بين العلماء والأدباء، وقد حفظت لنا كتب الأدب سيرة بعض الأعلام منهن.

في مقدمتهن السيدة سكينة بنت الحسين، التي وصفتها كتب الأدب والتراجم، بأنها شاعرة أديبة عالمة فريدة بين النساء في زمانها في العلم والأدب، كاملة الأخلاق محبة للتعلم، تشارك في كثير من مجالس العلوم والآداب والفنون، حيث كان الشعراء يفدون على دارها من كل حدب وصوب للمبارزة بالأشعار في حضرتها، حيث اشتهرت بنقدها الصائب في الشعر العربي.

والسيدة عائشة بنت طلحة، التي اشتهرت بعقد مجالس الشعر، واجتمع لديها الأدباء للمناقشة في مجالات الأدب والشعر والرواية. وفي القرن الخامس الهجري برز ذكر السيدة شهدة الملقبة بفخر النساء، حيث كانت تلقي دروسًا في الأدب والتاريخ في جامع بغداد على الجمهور، وكان لها منزلة كبيرة في التاريخ الإسلامي، ولهذا كان يحضر دروسها الكثير من العلماء والفضلاء.

التجارة والاقتصاد

وفي مجال الاقتصاد والتجارة، لم تكن المرأة بمنأى عن ارتياد هذا المجال الهام، وإثبات جدارتها ومقدرتها، بأن تكون اقتصادية بارعة يوكل إليها المهام الصعبة في مجال التجارة والاقتصاد، فتثبت جدراتها وكفاءتها للنهوض بمثل هذه الأعمال، التي كانت قاصرة على الرجال فقط.

ومن الشخصيات النسائية التي برزت وبرعت في هذ المجال، السيدة الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية، تلك السيدة التي تميزت بالعقل الراجح في مجال التجارة، فولاها عمر بن الخطاب ﷺ ولاية الحسبة والأسواق وأوزانها ومعاملاتها، أي وزارة التجارة بلغة العصر، فأثبتت جدارتها تراقب وتحاسب وتفصل بين التجار وأهل السوق من الرجال والنساء.

التمريض والطب

وفي مجال التمريض والطب، كان للمرأة المسلمة باع طويل في هذين المجالين يرجع إلى بدايات الدعوة الإسلامية، فبالنسبة لمجال التمريض، كانت النساء المسلمات يقمن في الحروب بمداواة الجرحى وخدمتهم ومعاونتهم، كما تعمل سيدات الهلال الأحمر والصليب الأحمر في الحروب اليوم.

وقد روي أن أمية بنت قيس الغفارية قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار وهو سائر إلى غزوة خيبر، فقلت يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك، فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال ﷺ: "على بركة الله". وتقول الربيع بنت معوذ ﷺ: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، فنسقي القوم ونخدمهم ونداوي الجرحى، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة.

وإذا تركنا مجال التمريض إلى الطب، نجد أن ذلك الأمر ليس وليد هذا العصر، بل يرجع إلى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية؛ فقد أشار ابن أبي أصيبعة في كتاب "طبقات الأطباء"، إلى طبيبتين مسلمتين درستا الطب واشتغلتا به، وهما الطبيبة زينب طيبة بني أود، التي عرفت ببراعتها في علاج أمراض العيون. والطبيبة أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي، وقد كانت طبيبة شهيرة في الطب، كثيرة الاطلاع، أجادت علومًا كثيرة مع الطب، وبنتاها كانتا عالمتين بالطب والمداواة، ولهما خبرة كبيرة بعلاج أمراض النساء.

ويكفي أن نشير إلى أن كتب التاريخ والتراجم، حفلت بالعديد من الموضوعات والأخبار عن شخصيات نسائية، كان لهن دورهن وشهرتهن في مجالات التثقيف الديني والأدبي والعلمي والطبي، الأمر الذي يوجب على المرأة المسلمة في هذا العصر أن تعمل على أن تكون امتدادًا لهذا الجيل من الصحابيات والتابعيات اللاتي حملن مشاعل العلم والمعرفة، وكن مثالاً يحتذى به في كل زمان ومكان. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

أنت تأكل بدماغك

يوجد أكثر من مليون خلية عصبية تبطّن القناة الهضمية، وتعتبر "دماغًا" في حد ذاتها. كذلك تتواصل القناة الهضمية مع الدماغ عبر إفراز هرمونات في الدم لتُخبره -خلال مدة تصل لعشر دقائق- بمدى الشعور بالجوع أو التُخمة. ولكن دراسة حديثة أبانت عن اتصال مباشر في ثوان معدودة بين القناة الهضمية والدماغ عن طريق دوائر عصبية تنقل الإشارات بينهما، كما تبين وجود مسارات جديدة تستخدمها الخلايا المعوية للتواصل بسرعة مع جذع الدماغ (Brain Stem).

في عام ٢٠١٠ قام عالم الأعصاب "دييجو بوهوركيز" (Diego Bohrquez) من جامعة "ديوك" في مدينة "دورهام" بولاية "نورث كارولينا"، باكتشاف عظيم أثناء نظره في مجهره الإلكتروني، حيث وجد أن الخلايا الصماء المعوية (Enteroendocrine cells) التي تبطّن القناة الهضمية، تفرز الهرمونات المسؤولة عن تحفيز الهضم وتثبيط الجوع، لها نتوءات تشبه الأقدام وتتشابه في شكلها مع شكل التشابكات العصبية التي تستخدمها الخلايا العصبية للتواصل فيما بينها.

ويعلم "بوهركيز" أن هذه الخلايا بإمكانها إرسال رسائل هرمونية للجهاز العصبي المركزي، لكنه تساءل أيضًا عما إذا كان باستطاعة هذه الخلايا التواصل مع الدماغ عن طريق الإشارات الكهربية، كما تفعل الأعصاب مع بعضها. وإن كانت بالفعل تمتلك هذه القدرة، فلا بد وأنها ترسل هذه الإشارت الكهربية من خلال العصب المبهم (Vagus Nerve) الذي يصل القناة الهضمية بجذع الدماغ. وقد قام هو وزملاؤه بحقن فيروس داء الكلب الفلورسنتي (Fluorescent Rabies Virus) والذي ينتقل من خلال التشابكات العصبية، في أمعاء مجموعة من الفئران، وانتظروا أن تضيء الخلايا الصماوية المعوية وشركاؤها.. وما وجده العلماء أن شركاء هذه الخلايا، هي في الواقع عصبونات العصب المبهم. وقد نشروا النتائج في دورية العلم (Science).

وما أكد ذلك أنه عند زراعة الخلايا في طبق بتري (Petri dish)، قامت الخلايا الصماء المعوية بالتواصل مع العصب المبهم وكونت اتصالات تشابكية معه، حتى إنها أفرزت الناقل العصبي جلوتامات (Glutamate) المتضمن في عمليتيّ الشم والتذوق والذي التقطه العصب المبهم في أقل من ١٠٠ ملل ثانية (أي أسرع من طرفة عين)، إذ تعد هذه المدة أسرع بكثير مما تستغرقه الهرمونات في الانتقال من الأمعاء للدماغ. وإن بُطء الهرمونات قد يكون مسؤولاً عن فشل الكثير من مثبطات الشهية التي تستهدفهم.

والخطة التالية هي دراسة ما إذا كان تبادل الإشارات المباشر بين الأمعاء والدماغ يوفر معلومات هامة للمخ حول القيمة الغذائية ومقدار السعرات الحرارية للأطعمة التي نتناولها، وأنه قد تكون هناك ميزات عديدة لهذا التواصل فائق السرعة بين الأمعاء والدماغ، مثل اكتشاف السموم، ولكن قد تكون هناك أهمية أكبر لتحديد ما تحتويه أمعاؤنا في الوقت الحقيقي والمناسب. وأيًّا كانت هذه الفوائد فلا بد أنها متواجدة منذ القِدَم، فالخلايا الحسّية في القناة الهضمية يرجع وجودها إلى أحد أوائل الكائنات متعددة الخلية وهو (Trichoplax Adhaerens)، والذي ظهر قبل ٦٠٠ مليون سنة تقريبًا.

وهناك أدلة إضافية على كيفية استفادة أجسادنا من وجود خلايا حسية في الأمعاء تم نشرها في دورية الخلية (Cell)، فقد استخدم الباحثون أشعة الليزر لتحفيز الخلايا العصبية الحسّية في القناة الهضمية للفئران، والتي أنتجت مشاعر المكافأة عند الفئران التي سعت جاهدة لتكرار تذوق هذه المشاعر مرة أخرى. فاستثارة هذه الخلايا بأشعة الليزر زاد من مستويات إفراز الدوبامين (Dopa-mine) وهو أحد النواقل العصبية المُحسنة للمزاج في الدماغ ويسبب السعي إلى الإثابة. وتساعد هاتان الدراستان على شرح إمكانية تحفيز العصب المبهم بتيار كهربي لعلاج الاكتئاب الحاد كما يقول "إيفان دي أراوجو"، عالم الأعصاب في كلية "أيكان" للطب "ماونت سيناي" في "نيويورك"، والذي قاد الدراسة المنشورة في دورية

إن الخلايا الصماء المعوية التي تبطن القناة الهضمية، تفرز الهرمونات المسؤولة عن تحفيز الهضم وتثبيط الجوع، لها نتوءات تشبه الأقدام وتتشابه في شكلها مع شكل التشابكات العصبية التي تستخدمها الخلايا العصبية للتواصل فيما بينها.

"الخلية"، كما تفسر النتائج: لماذا يُشعرنا تناول الطعام بالسعادة. وعلى الرغم من وجود هذه الخلايا العصبية خارج الدماغ، إلا أنها تتوافق تمامًا مع الخلايا العصبية المكونة لنظام المكافأة الدماغية (Reward Neurons)، والتي تحفزنا وتزيد من سعادتنا.

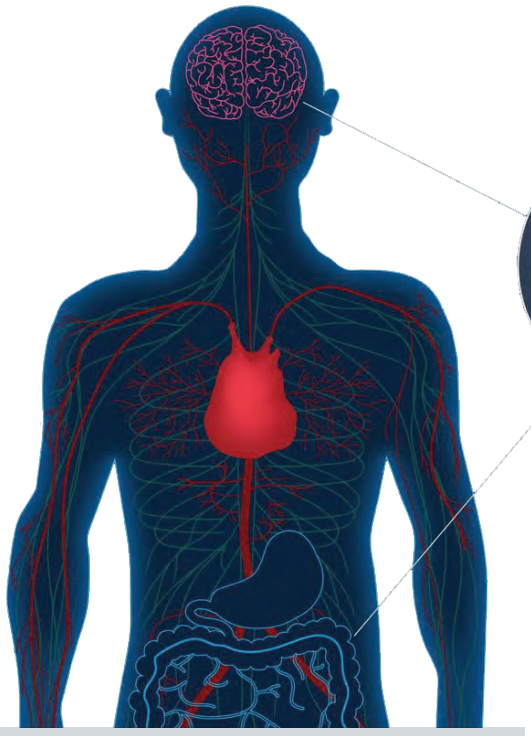

أبانت دراسة حديثة عن اتصال مباشر في ثوان بين القناة الهضمية والدماغ عن طريق دوائر عصبية تنقل الإشارات بينهما، وأبانت وجود مسارات جديدة تستخدمها الخلايا المعوية للتواصل بسرعة مع جذع الدماغ.

لماذا نأكل بأدمغتنا

يمثل الدماغ نحو ٢٪ من الوزن الكلي لجسم الإنسان، بينما يستهلك نحو ٣٠٪ من السعرات الحرارية المتولدة يوميًّا. وتحتاج خلايا الدماغ -أكثر من غيرها- لمصدر مستمر للطاقة والتروية الدموية، فهو بحاجة إلى سكر (جلوكوز) كمصدر لإنتاج الطاقة. وتقوم خلايا المخ بحرق جزيئات هذا السكر حتى خلال النوم. وهذا يؤكد أهمية تناول وجبة الإفطار كأفضل وسيلة لاستعادة مخازن الوقود داخل الجسم، وبخاصة عند الأطفال.

كما تستهلك خلايا الدماغ حجمًا أكبر من غاز الأكسجين مقارنة بباقي خلايا الجسم. ويساعد وجود مقدار كاف من عنصر الحديد في خضاب الدم، على حمل حجم كاف من غاز الأكسجين إلى أنسجة الجسم بما فيها خلايا الدماغ.

ومن الأسباب التي تجذب البشر للطعام أنه مدعاة للشعور بارتياح وسعادة وإثابة، وعندما نعيش خبرة سارة تتعلم أدمغتنا أن تربطها إشراطيًّا (Conditioning) بالظروف التي أحاطت بها. وتزداد حين تَعْرضُ للناس أطعمة معينة، والإشراط يربط الذاكرة ليس بمنبه الأطعمة فقط، بل وبالبيئة التي يوجد فيها ذلك المنبِّه ودالّات أخرى ذات صلة. وتقوى تلك الذاكرة حينما تصبح دورة التنبّؤ بالسرور، والحصول عليه أكثر تأكيدًا. ويفيد ازدياد "دوبامين" في إعلامنا بتنبيهات تخص الطعام والسرور، وكذلك الخطر والألم. والرسالة التي تتحقق حين يُفرز "الدوبامين" في الجسم، هي أن تبادر إلى إنجاز هدف معيَّن، فهو محرّك قوي للدوافع (Motivator). وتكون الأطعمة -وبمرور الوقت الكافي- فعالة بشكل خاص كمنبِّهات إشراطية بسبب خواصها الأساسية. وتكون الأغذية العالية السّعرات -لا سيما الأغذية الغنية بالدهون أو السكر- أكثر احتمالاً لدفع المرء جبريًّا للأكل. ونحن محاطون بأطعمة غنية بالدهون والسكر، الأمر الذي أسهم في زيادة البدانة، فالتعرُّض لمثل هذه الأطعمة يولِّد "اعتمادًا" جَسَديًّا عليها.

الدماغ والبدانة

كلما كان الشخص أكثر بدانة قلّت "مستقبلات الدوبامين" التي يمتلكها. ووجد ترابط سالب بين توافر تلك المستقبلات لدى البدناء ومؤشر كتلة أجسامهم. وقد يمتلك هؤلاء البدناء -وراثيًّا- أعدادًا منخفضة منها ليبدأوا بها حياتهم، ومن ثم تتراكم المشكلة لاحقًا لتعرضهم "للإدمان على الطعام".

وقد يكون بعض الناس معرضين لخطورة أكبر من جراء الأكل الجبري، لأنهم قد يكونون حساسين لمنظومة الإثابة والشعور بالسعادة. وبعض الأشخاص البدينين يتَّصفون بزيادة في الفعالية الدماغية استجابة لإحساسات الفم والشفتين واللسان. وعلى نحو مشابه، لا يكون بعض الأشخاص فعالين في الاستجابة للإيعازات الداخلية بالشبع، ولذلك يكونون أكثر تأثرًا بالرغبات

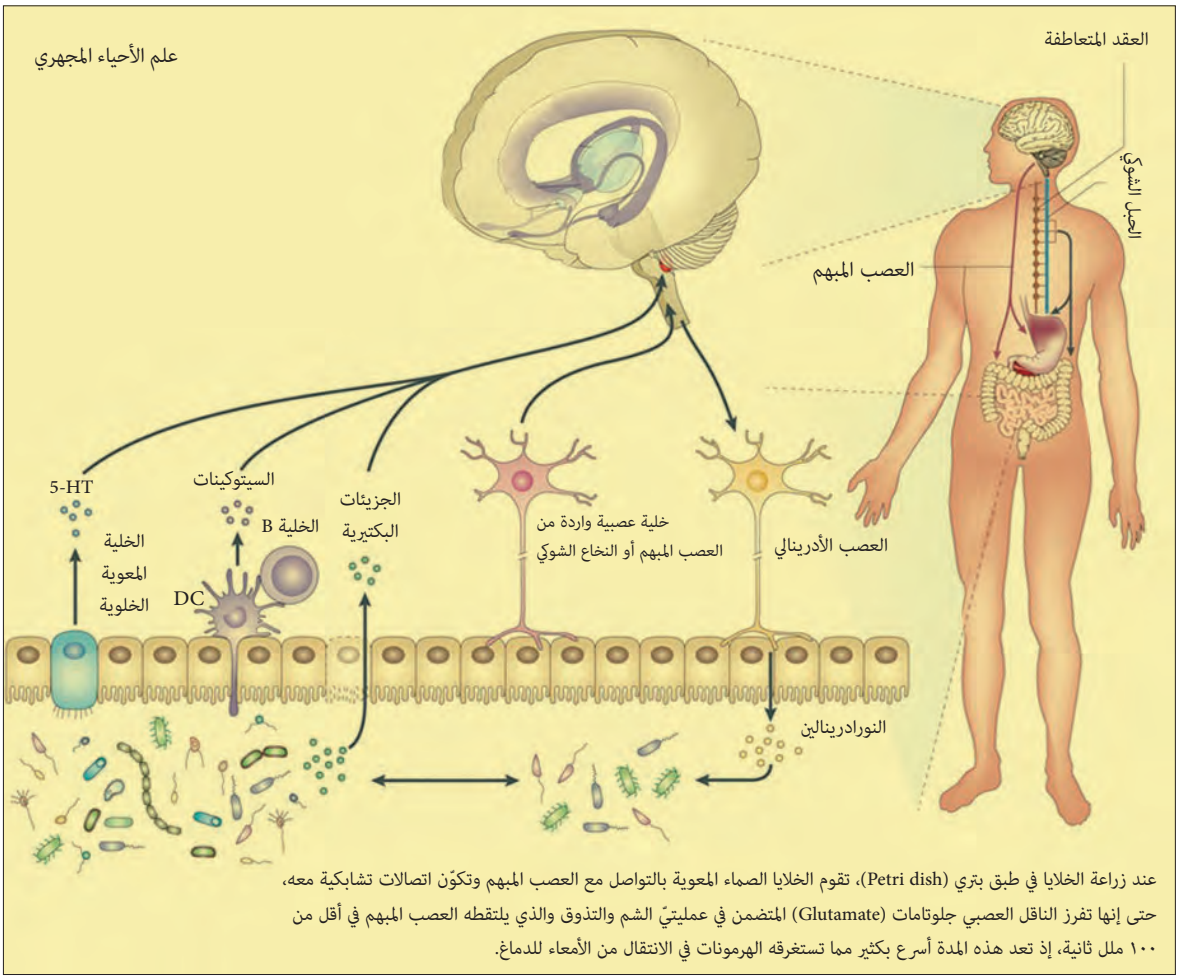

عند زراعة الخلايا في طبق بتري (Petri dish)، تقوم الخلايا الصماء المعوية بالتواصل مع العصب المبهم وتكوّن اتصالات تشابكية معه، حتى إنها تفرز الناقل العصبي جلوتامات (Glutamate) المتضمن في عمليتيّ الشم والتذوق والذي يلتقطه العصب المبهم في أقل من ١٠٠ ملل ثانية، إذ تعد هذه المدة أسرع بكثير مما تستغرقه الهرمونات في الانتقال من الأمعاء للدماغ.

الملحّة التي تبعثها محفزات دالاّت الغذاء في بيئتهم.

كما أضافت دراسات التوائم، أن نحو ٥٠٪ من الخطورة بالنسبة إلى البدانة، تعود لأسباب جينية. ولكن الجينات المَعْنِيّة تؤدي دورها بعدة مستويات مختلفة، انطلاقًا من فروق في الكفاءة التي تَسْتَقبِل أغذية معينة وانتهاءً بفروق في احتمال الاضطلاع بالمخاطرة، أو السلوكيات الاستكشافية ابتغاء استكمال منظومة الإثابة.

وثمة مداخلات فارماكولوجية موضع بحث، مثل الأدوية التي تزيد استجابة الدوبامين في الدماغ. فأحد الإنجازات الهامة يتمثل في الاختبار الأوّلي لعقّار يُعْطى بالفم ويُحاصِر ببتيد (Peptide) يدعى أوريكسين (Orexin) يعزِّز الشعور بالنشوة، وهذا العقّار قد يكون مفيدًا في معالجة تناول الأطعمة.

كما تم استخدام تقنية التصوير بالتجاوب المغناطيسي الوظيفي أو (fMRI)، لتدريب البعض على تمرين أجزاء معينة من أدمغتهم تسمي "الجزيرة" قد تقف خلف الرغبة الملحة للطعام، فأمكن تدريب أصحّاء وبعض من يشتكون ألمًا مزمنًا من التحكُّم في أدمغتهم لتلطيف شعورهم بالألم. فالمريض الذي يشاهد صورًا لنشاط دماغه، قد يستطيع تغيير آلية وظائف الدارية العصبية. مما يساعده على التحكم في رغبته الجامحة للطعام.

خلاصة القول، توجد أدلة كثيرة للتواصل بين خلايا حسية في الجهاز الهضمي وبين الدماغ. كذلك توجد دلائل تشير لما يسببه الولع بالطعام من إفراز "دارات دماغية" تسبب الشعور بالمتعة والسرور. وتبعث "استجابات إشراطية" يكفي لإثارتها لاحقًا رؤية الطعام أو حتى ظروف تناوله. وهناك الكثير من العادات الغذائية الشائعة التي تؤثر في خلايا الدماغ، مما يعطي مدخلاً هامًّا لفهم موضوع الأكل، ومشكلة السمنة وعلاقتهما بالدماغ. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

هذي عروسك أنت

دعْ عنْكَ ما حاكَهُ زُورًا أعادِيها ... واظْفَرْ بها دُرّةً، سبحانَ باريها
إنّي لأعْلمُ كمْ غشّوكَ يا ولَدي ... حتّى تفِرَّ بعيدًا عنْ مآسيها
وبتّ تحسَبُ في الهُجرانِ أمْنيةً ... تُقصِيكَ حينًا، وحينًا أنتَ تُقْصيها
فاعْلمْ بأنّ ظلامَ الظلمِ قيّدَها ... والروحُ هانتْ وعانتْ مِن تجافيها
السّوطُ يُلهبُها، والصوتُ يُرهبُها ... والصمتُ يَنهبُها، والحزنُ يُلْهيها
ورغمَ ذا علقتْ بالصبرِ ما غرقتْ ... تقولُ: إنّك حتمًا سوفَ تُنجيها!
وقدْ أتيتَ بكلّ الحُبّ تُنقِذُها ... وأشرقَ الزهْرُ أخْرى في مغانيها
أطلقتَ صيحتَكَ الغَضْبَى مُدَوّيةً ... وكنتَ فارسَها، مَنْ ذا يباهيها؟!

****

بُنيّ هُمْ حاولوا تشويهَ حاضرِها ... كما سَعَوا قبلَها في وأْدِ ماضيها
بل إنّهم أثبَتوا في السّرّ عِفّتَها ... لكنّ سُخطَهُمُ في الجَهْر يَنْفيها
فلا تَبِعْ –يا فَتَى– يومًا طهارَتَها ... هذي عَروسُكَ.. أنتَ الآنَ راعِيها
بروقُ راياتِها لو صَابَها ظَمَأٌ ... هل غيرُ كفّكَ بالإيمانِ تَرويها؟
والبردُ لو فَتّ في أوْصالِ ليْلتِها ... هل غيرُ شمسِكَ بالأحضانِ تُدْفيها؟
ولو بَكَتْ عينُها في حاجةٍ؛ ألَمًا ... منْ كان غيرُكَ في عطْفٍ يُواسِيها؟
وإنْ رماها حَقودٌ بالقَذَى؛ حَسَدًا ... مَن بالمُعَوّذتينِ –اليومَ– يَرْقيها؟
ويحَ الطغاةِ سَعَوا في الموْتِ، أحْزنَهُمْ ... زهْرُ السّلامةِ في بسْماتِ وادِيها
لكنّهمْ لو بَغَوا فالحبُّ أنْبأني ... بأنّ قُبلاتِكَ الحَرّى ستُحْييها
وإنّها –اليوم– تسْترضيكَ جاهدةً ... وانْظُرْ دموعَكَ في خَدّيْ أمانيها
لا تَهْجُرنْها –حبيبي– كيف تتْرُكُها؟ ... حاشاكَ –لو بكُنوز الأرض– تَشْريها
لا يتركُ الحُرُّ للباغينَ حُرْمَتَهُ ... هذي بلادُكَ أنتَ الآنَ.. عِشْ فيها!

(*) شاعر وأديب مصري.

د. صبحي رمضان فرج سعد*

الكلمات التي تخرج من أفواه ملوَّثة بالكبر والغرور لا تنفذ إلى القلوب أبدًا، وإنْ نفذت فلا يُكتَب لها البقاء طويلاً فيها.

الموازين

أمن البيئة في الإسلام

سبق الإسلام غيره من الشرائع والقوانين الوضعية، إلى وضع تشريعات محكمة لرعاية البيئة وحمايتها، ورسم حدود هذه التشريعات على أساس الالتزام بمبدأين أساسيين يحددان مسؤولية الإنسان حيال البيئة التي يعيش فيها؛ درء المفاسد وجلب المصالح.

مفهوم الأمن البيئي

الأمن نعمة عظيمة، بل هي من أجلّ النعم التي يتمناها الإنسان ويتطلع إليها، فالأمن يعطي الاستقرار، والاستقرار يقوي الأمل الذي يدفع للجد والعمل. قال الماوردي في القاعدة الرابعة التي قررها لصلاح حال الدنيا: "والقاعدة الرابعة: أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهمم، ويسكن فيه البرئ، ويأنس فيه الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، لأن الخوف

يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم". وروى الترمذي في سننه أن النبي ﷺ قال: "من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها" (رواه الترمذي).

و"الأمن البيئي" مفهوم شاع استخدامه خلال السنوات الأخيرة، وهو يستمد قوته وتأثيره من قواعد الإسلام الأساسية التي دعت إلى احترام البيئة والعناية بها، ومن ذلك قاعدة التحليل والتحريم التي تقتضي من المسلم الامتثال للأحكام الشرعية التي نهت عن الإفساد في الأرض.

ويمكن تعريف "الأمن البيئي" بأنه "إجمالي التأثيرات والعمليات المباشرة أو غير المباشرة التي يقوم بها الإنسان والمجتمع البشري، ولا تؤدي إلى إحداث أضرار بالبيئة أو تهديدات بحدوث مثل هذه الأضرار في المستقبل، وتعريض البيئة وتوازنها للخلل والتشويش".

وإسلاميًا تتعدد أطر هذا المفهوم، فتبدأ بالإطار البيئي المباشر للإنسان، وهو المسكن (الأمن المنزلي)، حيث حرصت أحاديث الرسول الكريم ﷺ على إرشاد المسلمين لما فيه أمنهم في منازلهم، فقد أخرج البخاري أن النبي ﷺ قال: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون"، كما أخرج البخاري أيضًا أنه ﷺ قال:"أطفئوا المصابيح بالليل إذا رقدتم، وأغلقوا الأبواب وأوكئوا الأسقية وخمروا الطعام والشراب".

ومنتهى هذا المفهوم، الإطار البيئي الشامل الذي يضم كافة صور الحياة، والذي يشمل الأرض جميعًا (الأمن الكوكبي). لما رواه ابن ماجة والدارقطني وغيرهما عن أن رسول الله ﷺ قال: "لا ضرر ولا ضرار". وبذلك فإن مفهوم الأمن البيئي في الإسلام مفهوم يتصف بالشمولية، والأمر بحفظه أمر تكليفي، يدخل في باب الأمانة التي عُرضت على الإنسان فقبلها وحملها.

مبادئ الحرب وأمن البيئة في الإسلام

إن الشريعة الغراء لم تتخذ من الحرب وسيلة للقهر والإعنات والإبادة، وإنما أباحتها -عند الضرورة- علاجًا لمرض لم يُجْدِ معه توجيه وإرشاد، ولم تنفع معه محاولات المودة والسلام، ومن ثم كان لا مفر من مواجهة الباطل بقوة الحق لتظل كلمة الله هي العليا.

وإذا تقفينا آيات القرآن الكريم في القتال ورجعنا إلى ظروف التنزيل، فسنجد أن الإسلام لم يجز الحرب إلا في حالتين اثنتين فقط؛ الأولى الدفاع عن النفس، والثانية الدفاع عن الدين وحرية العقيدة، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠)، وبذلك فقد هذّب الإسلام فكرة

الحرب وارتقى بها، وراعى فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية، فلم تكن حرب عدوان، ولم تقم رغبة في سيطرة، ولم تسع إلى فرض نفوذ أو امتداد حدود، ولم تبغ مجدًا أو عزًّا أو سلطانًا أو ملكًا، وإنما كانت حربًا دفاعية دفاعًا عن الدين والنفس والعقيدة. وحول حماية الشريعة الإسلامية للبيئة في وقت الحرب، يمكن استنباط ما يلي:

أولاً: تضييق دائرة المعارك الحربية، وقصرها على الأهداف العسكرية يحول دون تعرض البيئة بعناصرها المختلفة، وإذا ما اقتضت الضرورة الدفاعية أن يلحق بالبيئة بعض الأضرار، فإن ذلك يكون محدودًا ومقيدًا بالضرورة فلا يترتب عليه غالبًا إفساد عام أو تدمير شامل.

ثانيًا: الأخذ بمنطق الرأفة والرحمة، والجنوح إلى السلم إذا جنح إليه الأعداء، وعدم اللجوء إلى القتل إلا إذا فرضت الضرورة ذلك، والنهي عن الإسراف في إزهاق الأرواح، وتحريم التمثيل بالقتلى والإحراق بالنار، والأمر بسرعة دفن القتلى وعدم ترك الجثث في العراء دون مواراة لها في الثرى.. نتيجة لكل هذا تحمي الشريعةُ البيئةَ من بعض مصادر التلوث، لأن تقليل القتلى وعدم المُثلة أو التشويه، ودفن من يقتل دون إبطاء، يمنع من أن تصبح الجثث مرتعًا للجراثيم، وتنبعث منها الروائح الكريهة التي تلوث الهواء وتفسد التربة.

ثالثًا: قصر الحرب على الجيش المقاتل، فلا يجوز التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان، كما لا يجوز إتلاف البيئة أو التعدي عليها. فقد روى الطبراني قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشًا أو سرية، دعا صاحبهم فأمره بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: "اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا شيخًا كبيرًا".

ويتضح من نص الحديث، أن ذلك كان ديدنه ﷺ في كل غزوة، ولم يكن ذلك محض صدفة، ويشهد لذلك قول الراوي: "كان رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام إذا بعث جيشًا أو سرية"، فاللفظ يدل على تكرار الفعل منه ﷺ.

وكما كان هذا هدي النبي، فكذلك كان هدي الخلفاء من بعده، حيث أخرج الإمام مالك أن أبا بكر الصديق ﷺ بعث جيوشًا إلى الشام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان -وكان أمير ربع من تلك الأرباع- قال له: "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيًّا ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن".

وهذه الوصايا تمثل دستورًا لآداب الحرب والجهاد في الإسلام، لما اشتملته من تشريعات في الحرب لا يدانيها ما وصلت إليها قواعد القانون الدولي الحديث.

أما تخريب نخل بني النضير، المعروف بالبويرة، وهو بستان كان يقع جنوب غرب مسجد قباء الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾(الحشر:٥) فيرد على هذا من وجوه:

فسّر ابن كثير "لِينَةٍ" بنوع جيد من التمر، وذهب النووي وكثير من المفسرين إلى أن اللينة هي" ألوان التمر سوى العجوة"، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾، ولا يمكن فرض قيامها على أصولها إلا إذا كانت هي الثمرة، لا أصل النخلة، وقطع الثمرة لا يعد تخريبًا.

وعلى قول من قال بأن "لِينَةٍ" هي النخلة، وأن الآية نزلت في تقطيع وتحريق بعض نخيل البويرة، فإن في ذلك دليلاً على أن المسلمين كانوا منهيين قبل الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق، وكان هذا استثناء، واحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص، فجاءهم البيان الذي ربط الفعل والترك بإذن الله.

ويشهد لذلك ما رواه يزيد بن رومان، وقتادة، ومقاتل بن حيان من أنهم -أي بني قريظة- قد بعثوا يقولون لرسول الله ﷺ: "إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟"، وأيضًا قوله ﷺ -فيما أخرجه أبو داود والبيهقي والنسائي- "من قطع سدرة، صوب الله رأسه في النار"، والسدرة هي شجرة السدر المعروفة بـ"النبق"، حيث تنبت في الصحاري، ينتفع الناس بظلها وثمرها. وكما جاء في وصية أبي بكر لأسامة بن زيد حين ابتعثه على رأس جيش المسلمين: "ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة".

hiragate.com

hiragate.com

أما الإذن المذكور في الآية ففيه قولان: الأول أنه إذن قدري يرتبط بالمشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾(آل عمران:١٦٦) وإلى ذلك ذهب ابن الأثير وغيره.

والثاني أنه إذن شرعي، وهو ما يؤخذ من عموم الإذن في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(الحج:٣٩)؛ لأن الإذن بالقتال إذن بكل ما يتطلبه بناء على قاعدة "الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به" والحصار نوع من القتال، ولعل من مصلحة الحصار، قطع بعض النخيل لتمام الرؤية أو لإحكام الحصار أو لاستنزالهم من الحصون.

إن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد؛ فالعدو ليس الشعب وإنما العدو هم الذين يحملون السلاح. وعلى ذلك، فإذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء ضرورة حربية لا مناص منها، فإنه لا مناص من قطعه أو هدمه على أنه ضرورة من ضرورات القتال، كما فعل النبي ﷺ هنا وفي حصن ثقيف بالطائف.

ولقد تطورت أسلحة الحرب في العصر الحديث تطورًا مذهلاً، وعرفت أنواع منها تدمر البيئة بكل مجالاتها؛ كالأسلحة الجرثومية والذرية والنووية، كما عرفت أنواع أخرى لا يسلم منها المدنيون والعسكريون والأهداف المدنية والعسكرية، فهي أسلحة التدمير الشامل للكائنات الحية كلها. هذه الأسلحة يقف الإسلام منها موقفًا مناهضًا، فهو يحرمها تحريمًا قاطعًا ولا يبيح استخدامها في الحرب، لأنها تدمر الحياة ولا يسلم من آثارها المُهلِكة المنتصرون أو المنهزمون.

ومعلوم أن القانون الدولي الإنساني في شكله الحالي، يقوم على جملة من المبادئ المهمة التي تتفرع بدورها إلى أحكام تفصيلية تهدف في مجموعها إلى تحديد الضمانات اللازمة للحد من آثار النزاعات المسلحة -والعمليات الحربية بالخصوص- على الأشخاص الذين لا يشاركون في القتال، أو أصبحوا غير قادرين على المشاركة فيه. وتمتد تلك الضمانات أيضًا إلى الممتلكات التي لا تشكل أهدافًا عسكرية.

إن مفهوم الأمن البيئي في الإسلام مفهوم يتصف بالشمولية، والأمر بحفظه أمر تكليفي، يدخل في باب الأمانة التي عُرضت على الإنسان فقبلها وحملها.

وتفرض أحكام القانون الدولي الإنساني على الأطراف المتحاربة، احترام الضمانات الواردة في مواثيقه.

وتقيد أو تحظر استخدام وسائل وأساليب معينة في القتال، والقانون -وإن كان لا يمنع الحرب- فإنه يسعى إلى الحد من آثارها حرصًا على مقتضيات الإنسانية التي لا يمكن أن تتجاهل الضرورات الحربية.

وإلى جانب مبدأي "الإنسانية" و"الضرورة العسكرية"، هناك قاعدتا "التفرقة" بين الأهداف العسكرية والأشخاص المدنيين والممتلكات و"التناسب" في القيام بالأعمال الحربية. والمتفحص لهذه المبادئ الأربعة، يلاحظ مدى العلاقة بين مضمونها ومدلولها في القانون الدولي الإنساني وأحكام الإسلام.

وبذلك يظهر بجلاء مدى التوافق بين ما وصلت إليه القوانين الوضعية الحديثة، وما قررته سلفًا شريعة الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا، ومن جانب آخر فإن هذه الاتفاقيات على جدواها من الناحية النظرية، لا تلقى الاحترام أو الالتزام من الناحية العملية، إذ إنها لا تطبق إلا في حالة قيام الحرب بين دولتين موقعتين على المعاهدة، وفي حال وجودها فما زالت هناك العديد من المخالفات التي ترتكبها الجيوش في صراعها العسكري، غير عابئة بقيم إنسانية أو معاهدات دولية، لأنه لا يوجد وازع نفسي يفرض الالتزام بمثل هذه الاتفاقيات، بينما جعل الإسلام هذه الحماية جزءًا من عقيدة المسلم، وفريضة مكتوبة عليه، فهو بهذا يلتزم بما دعت إليه الشريعة التزامًا صادقًا ويطبقه تطبيقًا كاملاً لأنه محاسب إن فَرّط أو قَصّر. ■

(*) أستاذ جغرافية البيئة المساعد، كلية الآداب، جامعة المنوفية / مصر.

hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
نور الدين صواش

الإخراج الفني
نور الدين محمد
محمد أشرف

منسق الاشتراكات
محمد علي
+201094338182
+201102122946

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-71

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201094338182 - +201102122946
hiragate@yahoo.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

اقرأ في هذا العدد:

- العطاء الإنساني متى وكيف يتفجر؟
- قوة الكلمة وكيف وظفها الأستاذ كولن؟
- عتبات الغرباء، قراءة في النص الموازي..

الإصدارة الجديدة

لتحميل الإصدارة بصيغة بي دي إف يمكنكم زيارة:
www.nesemat.com

facebook.com/nesematstudies twitter.com/nesemat_com instagram.com/nesemat_com youtube.com/nesematchannel

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002
@daralinbiath | @daralinbiath

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

النسيم والجليد

يعودُ الربيعُ بحُلم جديد يعُود بآي الجمال السعيدْ
يهُبُّ النسيمُ بهيّا نديّا رويدًا يُذيب الجليدَ العنيدْ
وهذي رسالةُ عزمٍ لمَن بأوهامِ سجنِ الشتاءِ قعيدْ

***

ISSN 2357-0229
www.hiragate.com